الكاتب في سطور

ولد الكاتب جلال دمير في تركيا في مدينة مديات التابعة لولاية ماردين عام 1977م، درس المرحلة الابتدائية في مدينة ماردين، ثم تابع دراسته الإعدادية والثانوية والجامعية في ولاية غازي عنتاب

له عدة مؤلفات ومقالات تم نشرها في الصحف والمجلات الرسمية.

من مؤلفاته باللغة التركية:

- الصلاة: سؤال وجواب (قصة دينية قصيرة).
- المعلومات الدينية التطبيقية للأطفال (قصة دينية قصيرة).
- كتابات من الشارع (شعر).
- المرآة المكسورة (شعر).
- شهادتي على أمة في رابعة الصمود (ترجمة من اللغة العربية إلى اللغة التركية).
- حتى الفراشات تبكي (رواية).

أما بالنسبة لترجمة النصوص، فكان لها نصيبٌ من عمله، حيث ترجم العديد منها من اللغة العربية والعثمانية والكردية إلى اللغة التركية.

يعمل حالياً كمدير لمخيَّم اللاجئين السوريين في مدينة "نيزب" التابعة لولاية غازي عنتاب.

يتقن -جلال دمير- اللغة العربية والعثمانية والكردية والفارسية والتركية.

الترجمة

أمينة كردية

إهداء

أهدي هذا العمل إلى جميع الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل دينهم ووطنهم..

كما أهديه إلى الإخوة اللاجئين؛ الذين أجبروا على ترك بلادهم

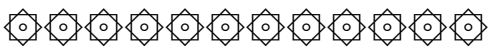

شكر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع أصدقائي الذين وقفوا إلى جانبي، وكانوا شعلة تضيء لي الدرب، كما أشكر زوجتي الحبيبة؛ التي أضافت بأفكارها النّيِّرة جمالاً إلى هذا الكتاب..

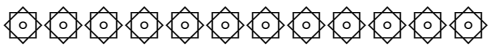

مقدمة:

لم تشهد الإنسانية في تاريخها القديم بربريةً كهذه التي تحدث اليوم، فالقوي يأكل الضعيف، وصاحب الحق لا يستطيع أخذ حقه، فالأعداء من داخل البلاد وخارجها يعملون معاً بكامل قواهم، والإنسانية مازالت تتغذى على الفتنة والفساد.. اسودَّت القلوب وسط صمتٍ وعمىً واضحٌ عما يحدث، هذا تماما ما كان يجري في البلد المجاور لنا، وهو: سوريا.

سوريا التي عانت الظلم بين عامي: 1970م و1980م في زمن الحاكم الأب: حافظ الأسد، وإذ بها تعاني الويلات في زمن الابن: بشار الأسد، حيث قام بأضعاف ما قام به واحده، إذ استخدم أسلحة الدمار الشامل والأسلحة الكيميائية وقتل آلاف الأبرياء دون سبب يذكر.

كما قامت روسيا بدعم نظام الأسد من أجل تسهيل تجارتها للأسلحة، في حين وقفت إيران إلى جانب هذا النظام الظالم المستبد ودعمته لتحقيق مآرب طائفية لها في المنطقة، وبدعم من هاتين الدولتين أصبح الأسد أشد تمسكاً بكرسي السلطة، مما زاد شلالات الدم السوري البريء.

أما بالنسبة إلى تركيا، ورغم مرور ستة أعوام على الثورة السورية (2017م)، إلا أنها لم تستطع إيجاد حل جذري للأزمة السورية، إذ إن المشكلة تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

تابعت الحكومة التركية تطورات الأزمة السورية عن قرب، وأطلقت نداءات عدة للإصلاح، إلا أن نظام الأسد لم يلقِ لها بالاً، وبنفس الوقت قدمت جامعة الدول العربية مقترحات عديدة لحل الأزمة تحت مظلة الأمم المتحدة، إلا أنها باءت بالفشل.

كان لتلك الأزمة أثر كبير على الدولة التركية، حيث أن حوالي ثلاثة ملايين مواطن سوري لجأوا إلى تركيا عبر حدودها مع سوريا، والتي أبقتها مفتوحة أمام كل من طلب اللجوء إليها، إذ إن هؤلاء اللاجئون انتشروا في جميع الولايات والمدن والقرى التركية، واستقر القسم الأكبر منهم في المخيمات التركية التي أسستها تركيا وفق المعايير الدولية بحق اللاجئين، فمن خلال تلك المخيمات أعطت تركيا درساً لا ينسى بالإنسانية

إلى جميع دول العالم، كونها المستجيب الأول لذلك القدر الكبير من اللاجئين على مر التاريخ، حيث أنشأت مدارس حديثة تحاكي بمستواها الجامعات، بغية تربية جيل من الشباب قادر على البناء، والنهوض بمستقبل بلاده.

تم تصميم تلك المخيمات وفق طراز حديث، تلائم بدفئها معيشة مئات الآلاف من اللاجئين، ممن اضطروا لترك منازلهم ومدنهم وقراهم، لم يقتصر دور المخيمات على الإيواء، وإنما كانت تعمل على بناء جيل الشباب كي يكون قادرا على النهوض بالأجيال القادمة.

ومن هنا تبدأ حكاية (وردة)، وذلك من خلال عملي في مخيم نيزب، والذي تم تأسيسه منذ ستة أعوام، كان في تلك الفترة لكل شخص ممن يقطنون المخيم قصة وحكاية، كلما سمعت قصة منها ذرفت عيناي الدموع، وصرخت الآهات..

فمنذ اليوم الأول لعملي في المخيم، وحتى الآن استمعت إلى آلاف القصص من هؤلاء الناس، احتفظت بأرشيف كبير لتلك القصص، لكن واحدة من تلك القصص كانت مختلفة تماما، ففي تلك القصة اجتمع الألم والحزن وقلة الحيلة، مع الصبر والقدرة على التحمل والرضا بالقدر معا.

حيث ستستشعرون في تلك القصة -المأخوذة تماما من الواقع- فطانة الأم اللاجئة، وصمودها في وجه التحديات والصعاب، كما ستظهر الرحمة ومد يد العون من قبل تركيا.

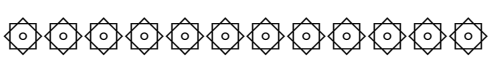

مقدمة علي شاهين:

بعض الآلام خرساء، يعجز اللسان عن وصفها، وبعضها الآخر يصعب وصفه، وإنّ وصف بعضها إنما هو جرأة تشبه إلى حد بعيد جرأة إنسان أعمى منذ الولادة على رسم كونٍ واسع بلا حدود، ذو سماء شديدة الزُّرقة، وغابات خضراء، وبحور واسعة، وجبال شديدة الانحدار؛ لذلك أعتقد أن وصف ألم أو وجعٍ ما، لا يمكن أن يحدث ما لم تذق طعم آلاف الأوجاع، أو تعيشها، أو أن تَعيش مع من عاشوها.

ومن هنا أستطيع القول: بأنه لا يوجد تعريف آخر لكتاب أخي الأستاذ (جلال دمير) "حتى الفراشات تبكي".

إن أخي الكاتب كان شاهداً على آلاف الأوجاع التي يصعب وصفها، وخاصة ضمن مخيمات اللجوء لأولئك الذين قدموا من بقاع شتى من سوريا: كإدلب وحلب وحمص وحماه ودير الزور، وها هو ذا كتابه الذي بين أيدينا يوثق لنا اللاإنسانية التي نعيشها اليوم.

في فقرات هذا الكتاب التي خُطت بقلب رجل مسلم، يشعر شعور مسلم غُرست شوكة في قدمه، ستقرأون بحيرةٍ ودهشة تفاصيل رحلة من الألم، أحد أطرافها نحن في أسِرّتنا الدافئة، ونومنا العميق، وأحلامنا الجميلة، بينما طرفها الآخر امرأة، وطفل، وعجوز يعيشون جنوب بلادنا.

علمتني الثورة السورية أن لا نكتفي بكوننا بأن نولد بشراً، وإنما أن نحيا كإنسان.

مع خالص أمنياتي بأن نحيا كإنسان حتى نفسنا الأخير.

ممثل الشعب عن ولاية غازي عينتاب

مساعد وزير الاتحاد الأوروبي.

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

مقدمة الصحفي كمال غموش:

أسأل الله تعالا أن لا يمحو سوريا من ذاكرتنا..

تلك الأرض التي شهدت أعتى أنواع الهمجية منذ مئة عام، وأي كتاب يستطيع أن يصف أرض سوريا التي رويت بدموع أبنائها ودمائهم، الأرض السورية: هي تلك الأرض التي جمعت الوحوش الأكثر همجية من بين البشر، هي الأرض التي شهدت قتل الأطفال، وسلب عفة النساء على مرأى العالم أجمع، لقد شهدنا تلك الهمجية والبدائية في هذه الفترة، في الوقت الذي وصل فيه التصوير والاتصال مرحلة لا حدود لها.

إذ لمس كل فرد منا، وعن قرب، قسوة القلوب التي حملها عديمي الإنسانية من البشر، وتيقنا عدم جدوى الشعارات التي يطلقها الغرب حول الاتفاقيات الدولية وحقوق الإنسان، والحرية والديموقراطية، إذ تبين -ومن خلال التجارب الأليمة- أنها عبارة عن أوهام وُضعت من أجل حماية منافع الغرب، وفرض سيادتها.

وبما أن تلك الحروب تحدث على أرض إسلامية، والأطفال والنساء المستهدفون هم من المسلمين أيضاً، فإنها ليست بالأهمية التي تستدعي تدخل الغرب لإنهائها، لا بل يظهرون المتعة بمراقبة ذلك الصراع، لأن القاتل والمقتول من المسلمين.

إذا، يمكننا القول: بأن كل سوري بداخله بحر من الآلام، فمنذ عام 2011م، وإلى الآن زُرتُ سوريا مرات عدة، حيث سيظل التاريخ الإنساني على تلك الأرض يلعن الوحشية التي عايشها السوريون، وبكل تأكيد فإن أكثر الناس شهودا على تلك الوحشية هم الصحفيون الذين تواجدوا بأماكن كثيرة داخل سوريا.

إن أخي وصديقي -جلال دمير- يحتل المرتبة الأولى من بين أولئك الأشخاص الذين اهتموا بالقضية السورية، وتابعوا -عن كثب- أحوال السوريين الذين تضرروا من تلك الحرب، ولجأوا إلى بلدنا، إذ إنه، وبالإضافة إلى المهمة الموكلة إليه، كان من بين أولئك الذين وثقوا الآثار العميقة التي أحدثتها الحرب على سوريا.

وقد سعى السيد جلال جاهداً، ومنذ البداية، على مساندة الإخوة السوريين، وفتح الأبواب أمامهم علّهم ينسوا آلامهم الماضية ويبقوا سعداء، حيث كان مرشدهم نحو إنشاء حياة جديدة تمكنهم من العيش بسلام.

إن العمل الذي قام به لم يكن بتلك السهولة، إذ كان لابد من التواصل مع كل أولئك اللاجئين الصامدين لفهم تغلبهم على مصاعب الحياة، رغم ما عاشوه من آلام وأوجاع، والتي مازالت ترافقهم في حياتهم، إذ إن صدر أي إنسان يضيق على حملها، فقد كنت أستمع إلى كل تلك التفاصيل من خلال زياراتي العديدة إلى السيد جلال في مكان عمله.

كما سيتسنى لكم، أنتم أيضا، الاطلاع على عدد من القصص المؤلمة، والحياة القاسية، والآلام التي عاشها أولئك الناس في سوريا، فمن خلال قراءتكم لهذا الكتاب، ستلعنون الظلام آلاف المرات، وستسألون أنفسكم مرات عدة: كم هو تعيسٌ ذلك العالم الإسلامي.

أرجو من الله تعالى أن تبقى الأحداث التي جرت على أهلنا في سوريا في ذاكرة العالم الإسلامي أجمع؛ فإذا ما تم نسيانها فإننا سنشهد مأساة سوريا في بلدان أخرى، لكن بظلم أشد، وآلام أكبر.

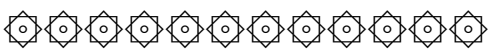

القسم الأول

اسمها وردة الحجي.. هي أم لخمسة أطفال، فتحت عينيها على الدنيا في مدينة مارع من محافظة حلب..

□□□□□□□□□□

عاشت في طفولتها وشبابها آلاماً لا تُنسى، تعادل تلك الآلام التي حفرتها الحرب الظالمة في قلبها.

فقدت وردة زوجها في مجزة حماه، التي ارتكبها الأسد الأب بحق الأبرياء من السوريين، بينما فقد ابنتها واثنين من أزواج بناتها على يد الأسد الابن.. كانت امرأة تتحلى بالشجاعة والقوة، وتمتلك قلباً قوياً، فقد استطاعت أن تتكفل برعاية عشرين يتيماً.

اجتازت، وبنجاح، كل امتحانات الحياة القاسية التي مرت بها، مما جعلها تتمسك بشدة بالحياة، تتحلى بعزيمة وإصرار واضحين تجاه الأيام التي تمضي.

في كل يوم كانت تضحك فيه، كانت تستذكر تلك السنوات العصيبة التي عاشتها عندما ترى التجاعيد التي ظهرت على وجهها، وكانت تمني نفسها بالعيش لطالما أن الحياة الدنيا مؤقتة، ومآلها إلى زوال، وأن الدار الآخرة هي الدار الباقية.

وها هي الآن تمسي لاجئة كحال الملايين من السوريين، وواحدة من الأبطال البارزين لتلك الحرب الظالمة.

يتيمة عاشت طفولتها، يتيمة كبرت، أرملة استكملت حياتها بعد أن فقدت زوجها وهي في ريعان شبابها، أرملة.. أم الأرامل من بناتها اللاتي فقدن أزواجهن.. أم الأيتام.. وأم الشهداء.. وأخت الشهداء.. وعندما شاخت غدت جدة الأيتام ومربيتهم.

نازحة.. لاجئة.. ومهاجرة.. هي امرأة شجاعة باختصار، ضحية لهذه الهمجية البشعة.

تعجز الكلمات عن وصف تلك المرأة، التي هي قصة من القصص الملهمة التي لن تنسى على مر الزمن.

عاشت وردة في مدينة مارع، في منزل صغير ذي طابق وحيد، وهيكل حجري قديم مؤلف من ثلاث غرف، كالقصر كان يبدو المنزل من الخارج، له باب أسود اللون، تستقبلكم في مدخل المنزل روائح العطر المنبعثة من تلك الأزهار المزروعة على طرفي فناء المنزل، ضمن أحواض اسمنتية جميلة.

كانت تعلو باب المنزل عبارة الترحيب "أهلا وسهلا" خُطّت باللغة العربية، وطُلِست باللون الأزرق، حيث يظهر قِدمها من قِدم الباب الأسود.

وعند فتح مصراعي باب المنزل الداخلي، كانت رائحة رطوبة الهيكل الحجري المتآكل تعبق في المكان، يأتيك من ورائه مباشرة دهليز واسع، على يسار ذلك الدهليز باب الغرفة الأولى، قد أطفأ الزمن ألوانه، وعلى يمينه بابين لغرفتين: الأولى هي غرفة المعيشة، والثانية صالة للجلوس.

جدران ذلك المنزل كانت شامخةً، وكأنها تعاند الزمن، وتأبى السقوط، كانت جميع أبوابه مزينة بقطعة صغيرة من القماش المطرّز.

كان يضم ذلك المنزل أباً وأماً وخمسة إخوة، وردة كانت الطفل الثاني من بين إخوتها، إلا أنها كانت تحظى بحب زائد من قبل والدها، الذي كان يعتبرها بمثابة عينه التي يرى بها، يعقب وردة ثلاثة إخوة، هم: حلا وأنوار وربيعة، كانت وردة تتميز عنهم جميعا.

كانت ترتسم الابتسامة على وجه والدها، عندما يقترب من المنزل ويشتم رائحتها، كتلك التي كانت تنتاب نبي الله يعقوب عليه السلام، دون أن يشعر، إلا أن ذلك كان يزعج إخوة وردة الآخرين.

ألزمت تلك المرتبة لوردة أن تتحلى بمزيد من الصمود أمام أمواج الحياة العاتية، لتثبت أهليتها لها.

مصطفى، ذلك الأب الذي كان شاهدا على ولادة ابنته، ولحظة بكائها الأول، وحبوِها، وأولى خطواتها.. كان يخفيها عن أعين الناس كي يمنع حسدهم عنها.

كان في حياة مصطفى أمرين اثنين جعلا منها حياة ذات معنى، الأول: صديقة حياته، ورفيقة دربه، وحافظة سره، زوجته، والثاني: كانت وردة حياته.

كانت وردة تحظى بقلب والدها، تتربع على عرشه دون منازع من بين إخوتها الآخرين، كان ذلك واضحاً جلياً لكل من حوله، رغم عدم بوحه بذلك.

ازداد حبه لها بمرور السنين، وأصبحت وردة جزءاً لا يتجزأ من حياة والدها، وقطعة من جسده، بل أكثر من ذلك، إذ أصبحت عينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها.

كان إعجابه بابنته يزداد عندما يراها ثابتة مستقيمة، لا تنحني مع الزمن، يتذكر من خلالها أيام شبابه، وثباته الذي لا يتزعزع.

كان مصطفى يصلي كثيراً، شكراً لله تعالى على وجود وردة في حياته.

بعيداً عن السياسة كان مصطفى، حرفيا ناجحا، عُرف من قبل الجميع من أبناء بلدته، واستطاع كسب الكثير من المال، فقد كان يعمل بهمة وعزم، ليحقق هدفه الأسمى: أن يكون مثال الأب الناجح، يبني مستقبلا زاهرا لأبنائه.

أصبحت وردة -تلك الطفلة الودودة، والمحببة لدى الجميع، ذات وجه ممتلئ، وشعر أسود، وعينين عسليتين، وحواجب طويلة- أصبحت طالبة في المدرسة الابتدائية.

لم تستطع وردة النوم في تلك الليلة، حين اشترى لها والدها حاجياتها المدرسية من زي مدرسي وحقيقة ودفاتر وأقلام، لأنها أمضت الليلة وهي ترتدي ذلك الزي لترى جمال نفسها فيه، لكن ذلك أرهقها وجعلها تخلد إلى النوم، وبجانب رأسها حاجياتها المدرسية تلك.

كان والدها يلحظ تلك السعادة التي غمرت ابنته وردة، ويدعو لها بالتوفيق والنجاح.

عاش مصطفى في جو عائلي متواضع يسوده الأمان والطمأنينة، حمل على عاتقه الاهتمام بعائلته والعناية بهم، وعندما أرسل ابنته الثانية إلى المدرسة بدأ بقلل من لقاءاته الخاصة مع أصدقائه، ويخصص جل وقته لأهل بيته، وللاهتمام بفلذات كبده، دون اكتراث بما قد تخبئه له الأيام.

كان مصطفى يعيش سعادة لا توصف بالوقت الذي يمضيه مع أطفاله، دون أن يدرك الأخطار التي قد تحيق بهم مستقبلا، وإذ بوردة الصغيرة بدأت ترتاد المدرسة، وقد اكتست خصلات شعرها جمال وأناقة ملابسها المدرسية.

إن القدر، الذي وصفته كتب عدة، وعبر عنه الملايين من الباحثين، اختار وردة في لحظة لم تكن تتوقعها أبدا.. فبينما هي تركض مسرعة -ذات يوم- في أحد أزقة مدينة مارع، إلى مدرستها التي لطالما أبتها، وإذ بحادث سير يودي بحياة والدها، ويسرق منها ملاذها الأخير في هذه الحياة.

كانت لا تزال طفلة صغيرة لا تدرك طعم مرارة الموت، كلمات كثيرة: كالموت، وحادث، وقدر، كانت تسمعها، لكن دون أن تفهمها، أو حتى تعلم طريقة كتابتها.. كان موت والدها بالنسبة لها واحدا من أحداث الحياة اليومية، إلا أنها أدركت معنى ذلك لاحقا.

فقدت وردة أباها قبل أن ترتوي من حنانه وعطفه، لم يكن الموت مجرد خبر يُدَوي في أذنها، وإنما كان أكثر ألما ومرارة عاشته في حياتها.. فقد أصبح اليُتم رفيقها مدى الحياة.

نعم.. لقد باتت وردة يتيمة.. وستكبر خجولة كباقي الأطفال الأيتام، فمنذ اليوم ستواجه مصاعب الحياة وهمومها بمفردها.

صورة تلك العائلة السعيدة، التي كانت قد ارتسمت للتو في مخيلة وردة، اختفت وبدأت تحل محلها صورة العائلة الحزينة المشتتة، التي بدأت تعتريها المآسي.

فقدت عاطفة الأبوة حتى قبل أن تتذوق طعمها..

أصبحت بطلة رئيسية لإحدى القصص التي سمعت عنها في الحكايات فقط، إلا أنها لم تدرك معنى ذلك لصغر سنها.

وردة الصغيرة تذوقت طعم الألم في سن مبكرة، وارتدت لباس الحزن الذي لن تستطيع خلعه طوال حياتها.

بينما هي طفلة بريئة مدللة، وإذ بها طفلة يتيمة، وذلك الذي علمها معنى التمسك بالحياة.

النسيان.. هو تلك النعمة الأكبر، التي أنعمها الله على الإنسان.

لا يستطيع الإنسان أن يتخيل نفسه وهو يعايش كل الأوجاع التي مرت به في الماضي وكأنها تحدث الآن.. ذلك ما لا يطيقه عقل.

إننا لا ننسى الأوجاع، وإنما نعتاد العيش بوجودها في حياتنا، فنظن أننا قد نسيناها.

أي أن كل وجع أو ألم نسيناه، قد أصبح عادة بالنسبة لنا.

لصغر سنها، نسيت وردة باكرا ألمها بفقدان أبيها، وأكملت حياتها من حيث انتهى بها الزمان، إلا أن ذلك الحادث المفجع ترك أثرا كبيرا على حليمة، وهي والدة وردة، أصبحت أرملة، وهي لا تزال في ريعان شبابها، لم تكمل السابعة والعشرين من عمرها، وهي أم لخمسة أطفال، أصبح على عاتقها جميع أعباء الحياة الثقيلة.

ولت تلك الأيام السعيدة، والآمنة، التي لم تكن فيها البسمة تفارق وجوههم، أصبحت من الماضي، وبدأت الأيام تمضي وهي تكوي فؤادها بألم الفقد والفراق، وبدأت الكوابيس رفيقة نومها.

سرعان ما كانت توقظها دموعها التي تسيل على وجنتيها من خيالها -الذي طالما يراود حليمة وهي تجلس إلى جوار نافذة منزلها الصغيرة المطلة على الشارع- وهي تتخيل زوجها ورفيق دربها يصل من السوق ويطرق باب المنزل حاملا بيديه أكياس الخضار والفواكه، وهي ستركض مسرعة نحو الباب لاستقبال توأم روحها..

استمرت على تلك الحال أشهر عدة، لكن حبيبها وتوأم روحها لم يأت.. ولم يحمل معه أكياس الخضار والفواكه.. حتى نفذ الطعام من البيت، ولم يبق ما يمكن طهيه.

آخر حفنة من الأرز قد طُبخت منذ ثلاثة أيام، واقتات عليها الأولاد على يومين متتاليين، أما الآن.. فلم يتبقى في المنزل شيء يؤكل.

في تلك الأثناء، كانت عروض الزواج تتوالى إلى تلك الأرملة الشابة الجميلة عن طريق أخيها، إلا أن حليمة لم تكن تلقي لها بالا، كما أنها كانت تفطر قلبها، فمن جهة لم يكن عارضوا الزواج ليقبلوا بوجود أبنائها معها، ومن جهة أخرى إصرار أخيها الدائم على زواجها.

"يجب عليك أن تتزوجي.. إن بقاءك بغير زواج، وأنت شابة جميلة سيعطي فرصة للناس للحديث بعِرضِنا، وستكونين سبباً في إسقاط شرف عائلتنا، لذلك يجب أن تتزوجي".

عبارة أخيها تلك كانت تدور في رأسها أياما عديدة.

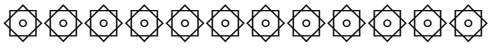

"الزواج"...

هو أمر جيد، إلا أنه لم يكن زواجا عاديا كغيره من الزيجات.

في حيرة من أمرها وقعت وردة، ففي رفضها للزواج اختبار لتحملها مسؤولية تربية خمسة أطفال وفوق ذلك، صبرها على نميمة الناس والنيل من شرفها، وفي قبولها ستتخلى عن فلذات أكبادها، ولن تستطيع أن تشتم رائحتهم مرة أخرى، ولن تستطيع أن تحفظ أغلى أمانة كان قد تركها لها زوجها مصطفى.

نعم، إن القدر وضع حليمة أمام هذه الخيارات الصعبة، إذ إن اختيارها لم يكن ليؤثر على حياتها فقط، بل ويحدد مصير خمسة أطفال كانت مسؤوليتهم موكلة على عاتقها.

بينما كانت حليمة سارحة ترمق السماء من نافذة منزلها الصغيرة، في وقت متأخر من الليل، وإذ بها تصحو على وقع صوت شديد يقرع باب منزلها الخارجي.

أدركت من خلال ذلك القرع الشديد على الباب أن أخاها قد قدم إليها وهو في حال متوترة.. لقد أحضر لها عرضا جديدا للزواج.

أسرعت حليمة وفتحت لأخيها الباب، الذي سرعان ما بدأ يحاورها بموضوع الزواج، بعد سلام قصير اكتفى بهز رأسه وتحريك عينيه.

"أصغي إلي يا أختاه... الأمر جديٌّ هذه المرة حقا، بدأ الحرمان ينال منك، ومن أطفالك كذئب جائع اقتحم قطيع أغنام، وحالي المتواضع لم يعد يقوى على مساعدتكم بشكل كامل".

"أعلم ذلك يا أخي، وإنني واثقة بالله، ومتوكلة عليه، وإني على يقين بأن الله سيفتح لي باباً آخر لا محالة".

"حسناً.. ها قد فتح الله لك ذلك الباب، فالرجل لا يرغب بتربية أطفالك.. إلا أنه سيمنحك فرصة الإنفاق عليهم ورؤيتهم متى تشائين.

أعدك يا أختي بأن أرعاهم حق الرعاية، وأن أكون لهم أباً، كما أن وردة قد كبرت ويمكنها أن تكون لهم أماً".

في تلك اللحظة رمقت حليمة بعينيها وردة الصغيرة.. ففي تلك الليلة كبرت وردة إلى الحد الذي سيجعل منها أماً لأربعة أطفال!

ذهبت حليمة في اليوم التالي إلى منزل أخيها مُعلمةً إياه موافقتها الى الزواج.

اغرورقت عينا حليمة بالدموع، وهي توصي أخاها بابنتها وردة، ليكون لها سندا وعونا، لطالما أن وردة لا تزال صغيرة على تحمل أعباء الحياة بمفردها.

مع أن الجرح الذي خلّفه وفاة زوجها في نفسها لن يندمل، إلا أن القدر قد اختار لحليمة ذلك الطريق.

المركبة التي تقف أمام المنزل تتأهب لنقل حليمة من منزلها.. معلنة أنه قد حان وقت الرحيل.. ومفارقة فلذات أكبادها.

مثل الأطفال كانت تبكي حليمة، وهي تعانق أطفالها بشدة، مودعة إياهم، تضمهم إلى صدرها بقوة علها تعيد أجزاء منهم إلى قلبها الذي يتفطر لفراقهم، في حالة يرثى لها من ألم الفراق ولوعته.

يا الله.. ما أقسى ذلك الامتحان..

إلا أنه لم يكن بمقدورها إلا الامتثال والطاعة، لطالما كانت تلك سمة المرأة المطيعة.

مشهد حليمة، وهي تقبل كل ذرة من جسد أبنائها، وتشتم رائحتهم باكية جعلت أخاها لا يتمالك نفسه، فخرّ جاثيا على ركبتيه وأجهش بالبكاء.

فجأة انقطع ذلك المشهد بسماع حليمة صوت بوق المركبة التي تنتظرها في الخارج، معلنا ساعة الرحيل.. التفتت حليمة إلى ابنتها وردة وقالت: "ستكونون في قلبي وعقلي دائماً، حاضرين في دعائي وصلواتي لكم، أستودعكم الله، ومن ثم خالكم، كونوا عوناً لبعضكم البعض.. بأمان الله ورعايته".

ومن ثم خرجت مسرعة من المنزل..

بينما كانت تمشي نحو المركبة.. كانت ركبتاها ترتجفان، وكانت نيران الحزن والأسى تأكل أحشاءها، وكاد البكاء يقطع أنفاسها، إلا أنها لم تكن لتجرؤ على النظر إلى الوراء، لترى ذلك المنزل الحجري ذو الطابق الوحيد، الذي بنت فيه آمالها، وقضت سني عمرها، فهي تدرك أن مجرد الالتفات كان سيحول دون ذهابها، فنظرة واحدة إلى فلذات أكبادها كانت كفيلة بتغيير رأيها والبقاء، فلم تستطع الالتفات.. لم تستطع.

غدت وردة بلا أب أو أم من الآن فصاعدا، لا بل ستتولى مهمة الأب والأم معاً، لإخوتها الصغار، وستعيش في كنف خالها، وهي في تلك السن المبكرة.

وبالرغم من صغر سن وردة وإخوتها، إلا أنهم تلقوا صفعة أخرى من هذه الحياة.. فقد أصبحوا أيتاماً وحيدين.

فبعد أن فقدوا عاطفة الأبوة بوفاة أبيهم، إذ بهم يحرمون حنان الأم ورعايتها أيضاً.

وردة الصغيرة في حالها هذه، وفقدها لأمها وأبيها، ومن ثم تربيتها في منزل خالها تشبه إلى حد بعيد طفولة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

على الرغم من صغر سن وردة، وضجرها من ذلك المنزل الجديد بالنسبة لها، إلا أنها بدأت تعتاد العيش فيه، كانت هادئة وخجولة، على عكس أقرانها من الأطفال الأشقياء.

هي طفلة في عامها الثامن، كانت من أجمل أطفال الدنيا، حيث كانت تدرك ما يدور حولها، وتعتني بنفسها لوحدها.

إلا أن الظروف القاسية التي عاشتها جعلت منها طفلة منغلقة على نفسها، تشتاق إلى أمها كثيراً، لكن تكتم ذلك الاشتياق في نفسها.

كانت تبكي بكاء صامتاً، وتأن أنيناً خافتاً في ركن من أركان المنزل اعتادت الجلوس فيه، تتذكر والدها الذي لم ترتوي من عطفه وحنانه بعد، وأمها التي أحبتها أكثر من روحها..

يكاد ينفطر قلبها كلما كانت تسمع حديثاً يروى عن أمها.

إنه يوم الجمعة.. أشرقت الشمس لتوها.. خرج خالها لتوه من المنزل ماضياً نحو عمله..

استيقظت وردة الصغيرة باكراً.. أخرجت بحذر وشاح أمها الذي كانت تخفيه في جيبها، وقد كتبت أمها عليه.. اعتصرته بين يديها الصغيرتين، ونهضت من فراشها قبل أن يراها أحد، ودخلت إلى المطبخ.

جلست مختبئة بالقرب من الثلاجة.. أدنت الوشاح منها تشتمّه مرة تلو الأخرى، في كل مرة كانت تشتمّه فيها، كان قلبها الصغير يخفق بشدة، لدرجة أنها كانت تحس بأنه سيخرج من مكانه، وعيناها تذرفان الدموع دون توقف..

بعد قليل استيقظت زوجة خالها ودخلت المطبخ، فذُعرت وردة، وأخفت الوشاء في جيبها بسرعة.

"من هناك" صرخت زهرة -زوجة خالها- بصوت عالٍ عندما أحسن بوجود أحد ما في المطبخ.

"أقسم بالله أنني لم أفعل شيء" صاحت وردة بصوت مرتجف عندما شعرت بالذعر، وبدأت أجفانها ترمش بسرعة وهي تغطي وجهها بكلتا يديها..

ثم نهضت من مكانها، وخطت بضع خطوات نحو الأمام مطأطئةً رأسها، وقفت وأخرجت من جيبها ذلك الوشاح الذي خُطّ عليه بأنامل أمها، وأعطته إلى زوجة خالها.

سألت زهرة: "ما هذا؟"

"كتابة أمي على الوشاح.. اشتقت إليها كثيرا". أجابت وردة.

ربّتت زهرة على كتفها بحنان، وقالت بصوت خجول: "لا تحزني، تعالي إلي يا عزيزتي".

ثم جلست جاثية على الأرض تعانق وردة، وتقبل وجهها الصغير، وتمسح خصلات شعرها، ثم مسحت لها دموعها..

أمسكت بيدها الصغيرة، وأخذتها إلى غرفة صغيرة ذات جدران متشققة، وطلاء أخضر باهت.

أجلستها على سرير لم تكن قد رتبته بعد، فتحت إحدى أدراج خزانة الملابس، وأدخلت يدها بداخلها.

بحثت بداخلها لتُخرج منها محفظتها الصغيرة ذات اللون الأحمر، ثم فتحت جيب تلك المحفظة لتخرج منها صورة أبيها المجعدة، وأقراط أمها الذهبية، وأعطتها إياهم.

شعرت وردة بالبهجة والحز في آن معا.

تناولت صورة أبيها، أمعنت النظر فيها مطولا، ثم قبّلتها قبلة كبيرة جدا.

ثم ضمت الصورة بكلتا يديها إلى صدرها من الجانب الأيسر، وكأنها ستلامس قلبها.

ثم وقفت أمام مرآة صغيرة مستديرة موضوعة فوق الخزانة ذات الأدراج، فشاهدت وجهها الطفولي المكتئب، عينيها الدامعتين، وخصلات شعرها المبعثرة.

تناولت بيديها أقراط أمها الذهبية، التي بقيت لها من ذكرى أمها، ووضعته في أذنيها بعناية.

هزت رأسها قليلا، وقالت: "اممم.. إنه يليق بي"، ثم خرجت مسرعة من الغرفة.

أخذت وردة هديتها التي لا تقدر بثمن، وسُرت بها كثيراً.

مضت أيام وشهور.. ولكن الآلام لم تهدأ بعد.. إنه القدر.

أجبرت على مغادرة مدرستها التي كانت قد التحقت بها مؤخرا، وهي بكل حيويتها ونشاطها، فقد تم إقصاؤها عن المدرسة بسبب غيابها الذي دام طويلاً.

كانت تشعر باليأس والغبطة الشديدة، في كل مرة كانت ترى فيها فتاة قد رتبت شعرها بعناية، وحملت على ظهرها حقيبتها المدرسية، وفي يدها وجبتها الغذائية، متوجهة نحو مدرستها.

كانت كل يوم تختبئ تحت السرير، تُخرج حقيبتها المدرسية المهترئة التي بقيت لها تذكاراً من أبيها، ثم تقوم بترتيب الدفاتر والأقلام والأشياء الأخرى بعناية داخل الحقيبة مُمَنّية نفسها بالعودة إلى المدرسة في قادم الأيام.

كانت في كثير من الأحيان تشتاق إلى صديقاتها اللواتي جلسن بجوارها في الصف، وإلى الألعاب التي كُنّ يمارسنها معا في باحة المدرسة، وتستذكر تلك الأيام الجميلة.

كانت تحاول دائما أن تبدو أقوى مما هي عليه، لذلك كانت تنجز أعمالا أكبر من سنها بكثير.

ففي تلك السن المبكرة، كانت تغسل الأطباق والأواني المنزلية، تنظف المنزل، وتنجز بعض المهام البسيطة بخفة ومهارة عالية، فقد كانت زوجة خالها توكل إليها الكثير من أعمال المنزل.

حملت وردة أعباء المنزل على عاتقها وهي صغيرة، في حين أن جميع من هم في سنها كانوا يتلقون تعليمهم في المدرسة.

علِقت بين الحياة والموت، كانت تعيش حياة مليئة بالعذاب، وتكبر مع مرور تلك الأيام الصعاب.

كانت عيناها تذرفان الدموع بشكل لا إرادي في كل مرة تتذكر فيها أبيها وأمها.

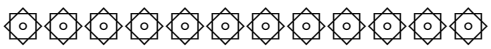

زواجها، ووفاة زوجها

لم تكمل السادسة عشرة من عمرها بعد، عندما غيرت رياح الحياة مجرى حياتها تماماً.

وجدة وردة نفسها داخل تحضيرات مراسم الزفاف في زمان وأسلوب لم تكن تتوقعهما، ومن رجل لم تكن لتتخيل الارتباط به مطلقا.

جاءت لحظة القرار الأصعب بالنسبة إليها، لكن قبل أن تفكر في عرض الزواج ذلك، كانت تتبادر إلى ذهنها جميع الأحداث المؤلمة التي عاشتها مع زوجة خالها.

فمن جهة كانت ترغب بالزواج، لكي تتخلص من جبال الأعباء الملقاة على عاتقها، ومن جهة أخرى كانت تفكر قائلة: "مازلت صغيرة"، لذلك لم تكن تكترث بعرض الزواج ذاك.

كانت تدرك مسبقا بأن ما تتمناه لن يحدث، وبأنها مجبرة على قبول ما يمليه عليها خالها، ففي مثل هذه الحالات، فإنه لم يكن يرى أي ضير في التدخل بحياة الآخرين.

إنه يوم الخميس.. لقد حل المساء.. كان الجميع قد انتهى من تناول الطعام.. زوجة خالها زهرة كانت للتو قد طلبت منها أن ترتب المنزل على عجل، وأن تبدأ بتحضير نفسها.

قامت وردة بترتيب مائدة الطعام بسرعة، ومضت إلى غرفتها، أخرجت من خزانتها ثوبا ذو أكمام طويلة وارتدته، كان ثوبا ذو لونين، جزء علوي أسود، وسفلي أزرق.

وقفت أمام مرآة ذات إطار في زاوية الغرفة، أمسكت بطرفي ثوبها، وأمالت رأسها يمنة ويسرة، ثم التفت حول نفسها قليلا لترى جمال ذلك الثوب عليها.

ثم خطت خطوتين نحو الأمام، وهمست في نفسها قائلة: "اممم.. جميل! على ما يبدو فقد لاق لي هذا الثوب".

لم تضع على وجهها أي نوع من مساحيق التجميل، فهي لم تكن تعرفه أو تستخدمه من قبل، إذ إن تلك العادات لم تكن تلحظها في منزلها.

وضعت القليل من مطرّي اليدين على وجهها ودلكته بلطف.. مشطت شعرها، ووضعت القليل من عطر ذو رائحة طيبة، وخرجت من الغرفة متجهة نحو المطبخ.

بعد نصف ساعة، وإذ بالضيف المنتظر يقرع الباب..

كانت وردة تترقب، متوترة، دخول العائلة التي جاءت لتطلب يدها.

"ها قد جاء الرجل ليأخذك" قالت زوجة خالها زهرة، والابتسامة تعلو وجهها، وكانت قد احتضنت كتفي وردة بكلتا يديها.

أما وردة، فقد كانت مرتبكة، يداها متشابكتان، ووجهها أصبح شديد الحمرة، وحل الذهول مكان الابتسامة.

أمعنت النظر بفنجاني القهوة التي اعدتهما قبل قليل قائلة في نفسها:

"هذه الفناجين هي التي ستحدد لي قدري".

تناولت كرسيا ذو لون أسود وأبيض، وجلست عليه، واضعة يدها تحت ذقنها، وغاصت في أحلامها..

استذكرت أبيها وأمها، استحضرت فراق والدتها لها ولإخوتها.. ثم قطعت على نفسها عهداً بأنها تكرر ما فعلته والدتها.

وإذ بها، وهي شاردة في المطبخ، تصحو على وقع صوت ينادي باسمها: "وردة".

كانت زوجة خالها زهرة هي من تناديها، على ما يبدو أنهم كانوا ينتظرون القهوة.

نهضت وردة على قدميها المرتعشتين، تناولت وعاء القهوة من على الطاولة، واضعة إياه على الموقد، كانت تحضر القهوة وتشم رائحتها الزكية.

وبعد قليل، تقدمت ببطء نحو غرفة الجلوس حاملة بين يديها طبقاً كانت قد رتبت فيه فناجين القهوة التي بدأ يعلوها البخار الساخن..

قرعت باب الغرفة بهدوء..

قدمت القهوة للضيوف، مبتدئة من جهة اليمين، ثم جلست على كرسي يقع إلى الجانب الأيسر من باب الغرفة.

رفعت رأسها بعد قليل ناظرة إلى خالد، ذلك الرجل الذي سيكون شريك حياتها.

أمعنت النظر فيه بطرف عينيها.. شعرت وكأن قلبها سيخرج من مكانه، أحست بالخجل، وأمالت رأسها نحو الأسفل قليلاً.

أعجبت بخالد من النظرة الأولى، وقالت في نفسها: "إنه رجل وسيم".

سرعان ما تبدلت ملامح عينيها، وكأنها في مزاج مختلف.

كانت تنتظر الخوض في الحديث عن الخطبة بفارغ الصبر، راجية موافقة كلا الطرفين.

احتسى الجميع القهوة، وكانوا يخوضون بأحاديث مختلفة بغية إضاعة الوقت.

وضع العمُّ -والد العريس، الذي كان يرتدي رداءً أبيضاً، وذو شاربٍ معكوف- وضع فنجانه على الطاولة، ثم شبَّك أصابع كفيه وقال: "... أريد أن أتحدث في الموضوع الأساسي".

ومن ثم أسند ظهره إلى الأريكة، ووضع يديه على جانبي الكرسي الذي كان يجلس عليه بارتياح، ثم أكمل حديثه بثقة نفسٍ واضحة:

"لقد جئنا إلى هنا، نحمل الخير في جعبتنا، وإن ابننا خالد، وابنتنا وردة موجودان معنا هنا، ونرغب تزويجهما على سنة الله ورسوله".

وختم حديثه آخذاً كأس الماء الموجود على الطاولة أمامه ليشرب منه القليل من الماء.

تشارك زوجة خالها -زهرة- الجالسة على الكرسي الثاني من جهة اليسار في الحديث، وبعد مدحها لوردة قليلاً قالت: "الزواج قسمة ونصيب، لذلك نسأل الله أن يقدر لنا الخير، نرجوا منكم أن تمنحونا بعض الوقت للتفكير، وسنعلمكم بقرارنا غداً إن شاء الله"، ثم أشارت إلى وردة لتجمع فناجين القهوة.

نهضت وردة من مكانها، وبدأت تجمع الفناجين باستحياء، لتغادر على الفور إلى المطبخ، والابتسامة تعلو وجهها.

غادر الضيوف المنزل سعداء، وكأن الأمر قد انتهى.

اتجهت زهرة نحو المطبخ لتأخذ قرار وردة حيال ذلك الأمر، لكنها لم تكن بحاجة إلى السؤال حتى.. فقد لاحظت قبولها للزواج لمعة الفرح والسعادة التي ارتسمت على عينيها.

في تلك الليلة خلدت وردة إلى فراشها والسعادة تغمر قلبها، كان قلبها يخفق بشدة، وكأن طبولاً تُقرع فيه.

كانت تحلم بعش الزوجية الذي ستبنيه مع خالد، وذات الوقت تتمنى أن يتم الزفاف بأسرع وقت ممكن.

في اليوم التالي تم إبلاغ الرجال بموافقة وردة على الزواج، وبدأت تحضيرات الزواج الرسمية.

هنالك أمور كثيرة في الزواج أكثر أهمية من العشق والشغف، كالتسامح والمحبة، والصدق والرحمة والإعجاب المتبادل.

كل تلك الأمور كانت مهمة بالنسبة لوردة، فالعشق لم يكن من أولوياتها، في الأفلام والقصص الخيالية فقط يمكن للشاب والفتاة أن يحبا بعضهما البعض، إلا أن الحياة ليست فيلم أو اسطورة.

كان خالد -الذي يطلب الزواج بوردة- يعيش في مدينة أخرى، إلا أن الزواج قد جمع بينما.

تمت الخطبة وفق العادات والتقاليد السائدة، وبحضور جميع أقاربهم، وبعدها بفترة وجيزة تم الزفاف.

أما وردة -التي خرجت لتوها من طفولة ذات سنوات صعبة- قبلت الزواج من خالد كي لا تكون حِملاً ثقيلاً على خالها فقد، وبذلك خطت أولى خطواتها في مؤسسة الزواج.

تزوجت وردة من خالد، وأنشئا عشهما الزوجي.

كان خالد شابا من عائلة حرفية، انضم إلى المدرسة العسكرية بعد أن أنهى دراسته الثانوية، ثم بدأ وظيفته كضابط.

كان خالد ضابطاً أسمر اللون، ذو شعر أسود، وبنية ضعيفة، وطول 185 سم.

تزوج من وردة، وفق الأصول المتّبعة، وكان ممتنّا جدا من زواجه، أما وردة فعلاوةً على أنها يتيمة، فهي الآن زوجة.

أصبحت ربة منزل تحمل على عاتقها جميع أعباء الأسرة على الرغم من صغر سنها، فهي لم تتجاوز السادسة عشرة ربيعاً.

أصبحت زوجة، ومن الآن فصاعداً ستكون الأمومة ومتطلبات الزواج وشؤون المنزل مهنتها الجديدة.

كانت الحياة تمضي مسرعة كالنهر، بين غسيل وكَيٍّ للملابس وتسوق وتنظيف وإعداد للطعام وغيرها من شؤون المنزل.

وكما هو معروف، فإن النهر معتاد على الجريان بسرعة جنونية، يحمل كل شي يُرمى بداخله بسرعة، ويقذفه بسرعة أيضاً، ويتابع جريانه، وكأن شيئاً لم يكن

اعتادت وردة أن تعيش مثل النهر تماما، تمضي الأيام من حياتها مسرعة، تخبئُ الهموم في أعماقها، وتنساها أو تتناساها بسهولة، وتُمضي حياتها وكأن شيئا لم يكن.

كانت وردة فتاة كأي فتاة أخرى، لديها احتياجاتها من تلك الحياة، وعندها الرغبة في الاختيار، إلا أن حياتها لم تكن أبدا مثل حياة باقي الفتيات.

وبالتالي، فإن مضي الأيام لدى الإنسان العادي، وباحتياجات عادية لم تكن لتتوافق مع حياة وردة غير العادية، كل مرحلة نم عمرها كانت تأبى أن تمر دون أن تترك في قلبها ألماً لا يمحى أثره.

على الرغم من كل ذلك، إلا أنها هي من قبلت الزواج، وقبل أن تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، إذ بها تهيئُ نفسها لتكون أماً أيضاً.

نعم، فعندما كان جميع من هم في سنها يقلبون صفحات الكتب المدرسية في صفوفهم، كانت وردة تجري تحضيراتها اللازمة لاستقبال طفلها الذي سيولد قريباً.

تخلت وردة عن رغباتها الشخصية، والتفكير بنفسها منذ زمن، وأضحت جلّ أمنياتها ورغباتها تصبُّ تجاه طفلها.

من الآن فصاعداً، فإن العنصر الأهم في حياتها هو منزلها، زوجها وطفلها الذي سيولد قريباً.

أتى اليوم المنتظر.. أنجبت وردة أول أبنائها، وأصبحت أماً.. رزقها الله بطفلٍ جميلٍ، يشعّ وجهه كالنور، أسمته عطا.

كانت وردة تهتم بطفلها، وترتب أولويات حياتها وفقاً لاحتياجات طفلها، وكأنها لم تعش شيئاً من قبل، فكل شيءٍ قد مضى، ونُسيَ.

مضت السنين مسرعةً، كالماء الجاري، وإذ بها تنجب طفلها الثاني: دلال، وأما الثالث فكانت: وفاء، والرابع: عباس.

أصبحت تلك الطفلة اليتيمة -مع مرور الوقت- وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، أصبحت ربة منزل ماهرة، تمضي حياتها بسرعة ما بين أعمال المنزل وتربية أبنائها.

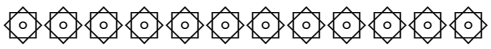

القسم الثاني

من دونك... قلة الحيلة..
الإهمال

□□□□□□□□□□

أحداث حماة عام 1982، واعتقال خالد

استولى حزب العبث على السلطة عام: 1963، وأسس نظام حكمٍ متسلط قائم على التمييز والاستبداد.

بدأ حزب البعث حكمه للبلاد بالضر بيد من حديد، وبعد الانقلاب الذي خاضه للوصول إلى السلطة أعلن على الفور حالة الطوارئ في البلاد، فبذلك الانقلاب الذي قاده حافظ الأسد -ذو الأصول العسكرية- اكتسب نظام البعث أبعاداً مختلفة، حيث أقرَّ استفتاءٌ أصبح حافظ الأسد بموجبه حاكماً للبلاد بنتيجة 99%.

كان حافظ الأسد الأب يمنع أي نشاط في البلد، وكان يفرض ضرائب مرتفعة على أي تحرك -ولو كان بسيطاً- يقوم به الشعب.

فرض هيمنته على جميع الصحف والمجلات، وكان يُحظر نشر أي خبر دون موافقة خاصة.

أما المحاكم، فكانت تتظاهر بقيامها بمهامها، في حين أن المخفي وراء عملها هو: حماية نظام حزب البعث.

كان يقضي على أي نشاط تعود خلفيته إلى الحركات الإسلامية، كما كان يفرض نظام مراقبة وملاحقة شديدين على منظمات المجتمع المدني والتحالفات الإسلامية.

كان حال البلد سيئاً لدرجة أن رجال الأسد كانوا يضعون أي شخص تحت المراقبة لو تم الاشتباه بأي نشاط مهما كان صغيراً، فقد كان يتم اعتقال المشتبه بهم من بيوتهم على الفور من قبل رجال الأمن، واقتيادهم إلى غياهب السجون، فلا يعلم أحد شيئا عنهم.

كان المشتبه بانتمائهم إلى جماعة الإخوان المسلمين -خاصة- يواجهون أقسى العقوبات، حيث يتم اعتقالهم وتنفيذ أحكام الإعدام بحقهم في سجن تدمر.

بدأ حافظ الأسد أعماله الدموية في عام 1982، كان الهدف الأساسي منها القضاء على الحركات الإسلامية، وعلى رأسهم حركة الإخوان المسلمين.

بدأت تلك الحملات الأمنية في جميع المدن السورية، وخاصة مدينة حماة، حيث كان يتم إحصاء الأشخاص الذين ينتمون إلى تلك الجماعة، والوصول إلى منازلهم، وتطبيق أشد أنواع العنف عليهم كرمي كافة أفراد الأسرة بالرصاص.

قتل رجال حافظ الأسد في ذلك الوقت خمسة آلاف مواطن سوري في البيوت التي دخلوها، ثم يقومون بتدمير كل ما في تلك البيوت ويحرقونها بما فيها.

كانوا يقتلون الأطفال بوحشية أمام أعين الآباء والأمهات، كما كان يرمى بالرصاص جميع الأشخاص من قبل عساكر نظام البعث دونما تمييز بين مسنٍ أو طفلٍ أو امرأة.

قامت الطائرات بدك المدينة كاملةً، حتى ساوتها بالأرض.

ووفقاً لتصريحات منظمة العفو الدولية، فقد استمر القصف أياماً عدة، إلى أن صدر في 15 شباط تصريح على لسان وزير الدفاع آنذاك -مصطفى طلاس- بإخماد التمرد الحاصل، إلا أن الحصار مازال مستمراً على المدينة.

وفي السابع عشر من شباط وثّقت منظمة العفو الدولية مقتل سبعين شخصاً في المستشفى الذي يقع خارج المدينة، وإعدام محافظ المدينة لكل من كان يقطن مدينة الحاضر في ذات اليوم.

تم في تلك الأثناء استخدام الغازات السامة من أجل القضاء على كل من كان يقطن الأبنية التي يشتبه بوجود معارضين للنظام فيها.

كان يتم اعتقال الأشخاص وجمعهم في المطارات العسكرية، أو في ملاعب كرة القدم، أو المخيمات العسكرية، والإبقاء عليهم لأيام عدة في العراء دون طعام أو شراب.

الشوارع كادت تخلو من كل شيء إلا الدبابات والمدرعات العسكرية، كما كانت روائح الجثث المتعفنة تعمُّ أرجاء المدينة.

حتى أن الذين كانوا في داخل منازلهم، كانوا يضطرون إلى تغطية أنوفهم من شدة تلك الروائح، ففي كل ناحية في مدينة حماة كان هنالك ميّت أو جريح، إلا أن أحداً لم يكن يجرؤ على لمسهم أو الاقتراب منهم.

كمان كان يمنع إقامة الجنائز للشهداء، وحدهم جنود الأسد المسلحين هم من يمكن لهم أن يتجولوا في شوارع المدينة وأزقتها.

اندثر صوت الأذان فيها، ولم يعد يسمع لعدة شهور بعدما هدموا الجوامع، كما هدمت المشافي والمدارس والمراكز الاجتماعية، كل ما في المدينة أصبح مساواً بالأرض.

كان الجنود يقطعون أيدي النساء للحصول على الحلي والمجوهرات التي يتزيّنّ بها، وكانوا يغتصبونهن في كثير من الأحيان.

تم اغتصاب وقتل الكثير من النساء اللواتي تعرفهنّ وردة من أجل المجوهرات التي كنّ يرتدينها.

كانت وردة تقيم في الطابق الثاني في بناءٍ يقع في شارع قريب من مركز المدينة.

وصل زوجها من عمله للتو، قام بتبديل ملابسه ليرتدي ملابسه المنزلية.

على غير عادته، كان في ذلك اليوم غاضباً، سيء المزاج، ويشعر بضيق.

لابد أن شيئاً ما عكر مزاجه، وكأن أمراً ما سوف يحصل.

اتجه نحو الغرفة، بعد أن أنهى تبديل ملابسه، فتح التلفاز وتمدد على الأريكة دون أن ينطق بكلمة.

تابع نشرات الأخبار.. كانت علائم الاستياء تظهر على وجهه، ويزفر أنفاسه باستمرار.

"ما بك يا عزيزي؟" قالت وردة بعد أن دخلت الغرفة بهدوء: "ما الذي يحدث؟ لماذا أنت مستاء هكذا؟".. تابعت وردة، إلا أن خالد لم يُجب أبداً، وكأنه لم يسمع شيئاً، فلم ينبث ببنت شفة.

قالت وردة في سرِّها: "خيراً إن شاء الله" ثم وضعت مائدة الطعام.

جلس خالد إلى مائدة الطعام، ثم نهض دون أن يأكل، ليبدأ بالحديث قائلاً: "سيقيلونني من عملي على الأرجح".

قالت وردة بدهشة: "لا، لن يحصل ذلك إن شاء الله"، وحاولت إشغال زوجها ليتوقف عن التفكير.

نامت وردة وزوجها في تلك الليلة والقلق يكتنفهما، أو بالأحرى كان كل واحد منهم يحاول أن يبدو نائماً كي لا يقلق الآخر.

إلا أنهما لم يناما، واستمرا بالتقلب في السرير من طرف لآخر.

وفي الصباح، وعند صلاة الفجر، حيث لا يزال الجو مظلماً، ولم يكن في الشوارع أحد إلا المصلين الخارجين لتوهم من المساجد، والهدوء يعم الشوارع والأحياء.

نهضت وردة من فراشها قائلةً: "لقد فاتتنا صلاة الفجر"، ثم استقامت في مكانها، كانت الساعة تشير إلى الخامسة صباحاً.

تثاءبت وردة، بسطت يديها، وفتحت عينيها، وبقيت هكذا لدقيقتين.

حاولت أن تنهض بهدوء من فراشها كي لا تزعج زوجها، ثم اتجهت إلى الحمام لتتوضأ.

أكملت وضوءها، ثم فتحت باب الخزانة الخشبية ذات اللون الجوزي التي كانت في غرفتها، وأخرجت سجادة الصلاة.. وضعتها على الأرض، وصلت فريضتها، رفعت يديها تدعو الله تعالى، حتى تخلل الألم كلتا يديها.

تركت السجادة مكانها، ومضت توقظ زوجها لأجل الصلاة بلطف.

نهض خالد وأتم صلاته، ثم عاد كلاهما إلى النوم.

لم يمضِ بضع دقائق حتى قرع رجال نظام البعث الباب، ومن ثم قاموا بكسره، ثم انتشروا في كافة أنحاء المنزل يبحثون في كل مكان.

التفت أحد الجنود إلى خالد قائلاً: "هناك قرار بإلقاء القبض عليك، نحن مجبرون على اعتقالك"، ثم وضع القيود في يديه واقتاده.

التفت خالد برأسه قليلاً، ناظراً إلى زوجه وردة، بينما كانت يداه مقيدتان، ورجال نظام البعث يمسكون به عن يمينه وشماله، ويجبرونه على الخروج من المنزل.

كان يريد أن يقول: "استودعكم الله"، ويشير لها برأسه، إلا أن رجال المخابرات الذين يلتفون حوله ممسكون به من كلتا يديه، حالوا دون ذلك، وأجبروه على الخروج من المنزل عنوةً.

باءت كل محاولاتها لتثني أولئك الرجال الذين يقتادون زوجها، بعيون حزينة عن اعتقاله، وإطلاق سراحه، باءت بالفشل..

خالد... أمسى سجيناً في زنازين سجن تدمر..

وردة الحجي.. كانت شاهدةً على كل تلك الأحداث، وكان اعتقال زوجها من قبل رجال نظام الأسد، واقتياده إلى سجن تدمر أحد تلك الأحداث المؤلمة التي تكررت آلاف المرات.

تقول وردة، واصفةً تلك الأيام التي عاشتها:

"زوجي كان يعمل نقيباً في قيادة القوات البرية، كان موظف دولة عادي، كان يصب جل اهتمامه بعمله فقط، ولا شيء غير ذلك، يخرج إلى عمله صباحاً، ليوم إلى منزله في المساء، دون أن يذهب إلى أي مكان آخر، أو يتسبب بأذى لأي شخص كان.

كان خالد فرداً من عائلة ذات دخلٍ محدود، لم يكن له آنذاك أي ارتباط بحركة الإخوان المسلمين، غير أنه كان رجلاً معتدلاً بإسلامه، كسائر إخوانه من المسلمين.

إلا أن لخالد صديقاً مقرباً منه، كان على علاقة بتلك الحركة الإسلامية، وكان يتردد إلى منزلنا كثيراً، وهذا ما تسبب باعتقال زوجي.

مارس الأسد الأب أعتى أنواع القهر والظلم علينا في ذلك الزمان، وهي تشبه إلى حد بعيد ما يتعرض له الشعب اليوم من ظلم وقتل وتدمير وتشريد على أيدي الأسد الابن.

لن تمحى تلك الأيام من ذاكرتي ما حييت".

ذلك الحزن الذي جاب شوارع المدينة طيلة أشهر، إذ به ينتقل إلى منزل وردة، باعتقال زوجها ووالد أطفالها، وعلى أيدي أصدقائه الذين عمل معهم سني طويلة.

أغلب الظن أن خالد لن يعود إلى منزله بعد اليوم، فإلى اليوم لم يخرج أحد من سجون الأسد سالماً، أو استطاع العودة إلى منزله، إذ إن معظم المعتقلين كان يتم إعدامهم على أيدي نظام الأسد.

أمست وردة -من تلك اللحظة- أباً وأماً لذلك المنزل، تحمل على عاتقها عبئاً ثقيلاً.

باتت وردة وحيدةً في عش الزوجية الذي نبياه سوياً.. كان أكبر همّ وردة أن ترعى أبناءها وتكفيهم سؤال الناس والحاجة إليهم.

لذلك كانت مهمة وردة التي تنتظرها -عقب هدوء الأوضاع في مدينة حماه- إيجاد فرصة عمل، بهدف توفير احتياجاتها الأساسية، ورسم مستقبل أطفالها، وكفايتهم سؤال الحاجة إلى الناس.

انجلت تلك السحب السوداء عن سماء المدينة، وبدأ الناس بمداواة جراحهم..

فقد انجلت عساكر نظام البعث عن شوارع المدينة، ولم تعد فوّهات البنادق موجهة بوجه الناس، ولم تعد تحلق المروحيات في سماء المدينة، فقد غادرت القوات العسكرية التي وصلت إلى المدينة للمؤازرة والدعم.

مضت ثلاثة أشهر.. لم تستطع وردة الوصول إلى أي خبر عن خالد.. كانت تتجنب تقصي الخبر عنه بشكل مباشر، أو محاولة الوصول إليه، لأن رجال الأمن يضعون أهالي المعتقلين تحت المراقبة، وتأخذ إجراءات صارمة بحقهم.

بحثت وردة عن عمل لإعالة أطفالها، وتأمين قوتهم، لم تترك باباً إلا وطرقته، لكن كل الأبواب التي طرقها سُدّت في وجهها، وبقيت في حيرة من أمرها.

وما كان من وردة إلا أن قامت ببيع جميع حُليّها ومجوهراتها التي بقيت لديها من زفافها، واشترت بثمنها آلة حياكة، وتعلمت وردة الحياكة والتفصيل، ثم بدأت بخياطة الألبسة لأهالي الحي الذي تسكنه.

كان عليها أن تعمل -كالرجال- وتكسب المال، لكي تتلافى الفراغ الذي تركه اعتقال زوجها، وهذا ما كانت تقوم به فعلاً.

تستيقظ في الصباح الباكر، لتبدأ يومها بالعمل الدؤوب، وتستمر حتى المساء، لتنهي جميع الأعمال المطلوبة منها.

أصبحت وردة أشهر امرأة تحيك الملابس في المنطقة، وصارت مقصد معظم أهالي المنطقة، ممن يودون حياكة الثياب.

ترعى أبناءها بما كانت تجنيه من تلك الحياكة..

مضى وقت طويل.. لكن قبلها لم يتعب.. فهي ما تزال تنتظر صاحب العينين السوداوين بفارغ الصبر، لم تملّ الانتظار أبداً.

"العيش بدونك... قلة الحيلة... سنوات الهجر اللاذعة هي حال تلك الليالي الحالكة".

"حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير" كانت مؤنسها، وتضيء الكون أمام عينيها..

فهل هنالك غيرُ الله من يُنيرُ لها ظلمات تلك الأيام في حياتها؟

لم يخرجها من حزنها سوى سجادة صلاتها.. التي كانت تجلس عليها لساعاتٍ طوال، تدعو الله وتذكره في قلبها.

فقد كانت وردة امرأة وقورة، تتحلى بالصبر، تؤمن بأن حياتها التي تعيشها بحلوها ومرّها هي من اختيار الله عز وجل.

مع كل ذلك الصبر والثبات، كانت وردة تترقب وتنتظر مضي الوقت.

وكانت تجعل من أمل الوصول إلى رفيق روحها، الذي كان حبُّه يكبر في قلبها، تجعله رفيقاً لدربها، آخذةً ليلى مثلاً لها.

تشتاق إلى زوجها كثيراً.. يزيد عليها ألم الشوق لتلك الأيام الجميلة ألماً على ألمها، الذي خلفتها عليها أوجاع الحياة..

كانت أشبه بميتٍ رُشَّ فوقه التراب، كانت حياتها بلا طعم، تخبو وتذبل كما النباتات العطشى التي أذبلتها لهفتها إلى الماء الذي به حياتها، ومع ذلك كانت تسلي النفس بانتظار صاحب العينين السوداوين.

كانت ترغب بالصراخ دائما، وتدعوا على نظام البعث باللعنة، لكن بخوف وحذر شديدين.

باتت تشعر بالغربة في بلدها، صامتةً مثل جبلٍ يحمل في داخله براكين ثائرة.

كثيراً ما كانت تزورها ابتسامته وعيناه في مخيّلتها..

صاحب العينين السوداوين كان بعيداً جداً.. كانت تخشى الذهاب لرؤيته.

لكن، كان عليها التغلب على خوفها، وأن تتوج أيامها الماضية برؤية تلك العينين السوداوين.

كان عليها أن تستجمع قواها، وتكابر على مخاوفها، فيجب عليها الذهاب لرؤيته مهما كانت النتيجة، لذلك عليها أن تهدّأ من روعها، وأن تشتم رائحة الورد التي اعتادت عليها مرةً أخرى.

"والدكم لن يأتي"، كان عليها أن تكف عن قول تلك العبارة أمام أبنائها، وأن تبوح لهم بأمر...

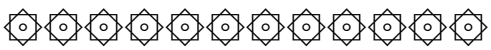

إنه يوم الثلاثاء..

نهضت وردة باكراً.. دخلت غرفة أطفالها.. أيقظتهم واحداً تلوَ الآخر، وهي تغني مترنمة، تمسك طرف البطانية الزرقاء، ذات النقش المربع، وتسحبها من فوقهم قائلة: "هيا يا أولاد.. استيقظوا.. لنذهب لرؤية والدكم".

تمكنت من ايقاظهم بعد عناء، وأحضرتهم نحو مائدة الطعام واحداً فالآخر.

بعد تناول الطعام أخذت دلال ووفاء وعباس وعطا إلى خزانة الملابس ليرتدوا ملابسهم.

ارتدت دلال فستاناً أحمراً مزهراً، ذو أكمامٍ قصيرة، وطول بالكاد يصل إلى ركبتيها.

أما وفاء، فقد ارتدت عباءةً جميلةً مذهَّبةً، ذات لونٍ أسود، وارتدى عطا بنطالاً جديداً يعلوه قميص ابيض، ذو أزرار، وارتدى فوقه سترة.

ارتبكت وردة وترددت، دخلت إلى غرفتها وفتحت خزانتها.. مدت يدها داخلها، قلّبت الملابس واحداً تلو الآخر، لم تعرف ماذا سترتدي.

قامت بتجريب جميع الملابس التي في الخزانة، كانت تريد أن تظهر بأبهى حُلّةٍ أمام زوجها.

تعبت من ارتداء وخلع الملابس، ثم ما لبثت أن ارتدت تنورة مزهرة، تعلوها كنزة زرقاء، ارتدت فوقها سترة ذات لون أسود، كانت قد اشترتها أيام الخطوبة، وارتدت في قدميها حذاءً بني اللون، ذو كعب قصير.

كانت تتمايل يُمنةً ويُسرةً، بينما هي ترتدي الملابس، لترى جمال ملابسها عليها، وكانت الابتسامة التي تعلو وجهها توحي وكأنها عثرت على ما كانت تبحث عنه.

أصبح الأولاد جاهزين للخروج، انتهت وردة أخيرا من ترتيب نفسها، وخرجت متجهة نحو أطفالها.

"هيا لنخرج يا أمي" ينادي الأطفال عليها لاستعجالها بالخروج بعد أن نفذوا كل ما طلبته منهم.

"هيا لنخرج يا أولاد، هيا لنذهب للقاء أبيكم" ردت عليهم وردة بعد أن انتهت من تحضير كل شيء، ثم أمسكت بأيديهم وخرجت.

سيارة أجرةٍ صفراء اللون، ذات طرازٍ قديمٍ بعض الشيء كانت تنتظرهم أمام المنزل.

أمسكت وردة بسواعد أبنائها تساعدهم على ركوب السيارة واحداً تلو الآخر، ثم غادرت السيارة المنزل.

أخيراً.. تغلبت وردة على مخاوفها، فهي الآن برفقة أبنائها باتجاه سجن تدمر.

جلست في المقعد الخلفي، تراقب الطريق واضعةً يدها تحت خدّها، ولسانها يلهج بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى بصوت خافت.

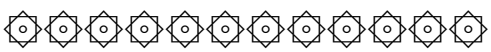

سجن تدمر

تفوح رائحة الموت منه، يبعد عن العاصمة -دمشق- قرابة مئتي كيلو متراً، إنه سجن تدمر، الذي اشتهر أكثر من تدمر العريقة نفسها.

يقبع فيه سجناء سوريون ولبنانيون وفلسطينيون وأردنيون كثيرون، إنه واحدٌ من السجون العشرة الأبشع في العالم، قتل فيه المئات والآلاف من السجناء أثناء التعذيب.

"مملكة الموت"، إنه الاسم الذي أطلقه الشاعر العربي -فرج بيراك تار- على هذا السجن، الذي كان بدوره مسجوناً فيه، وتم إطلاق سراحه بعد قرابة أربعة أعوام.

قام الفرنسيون ببنائه سابقاً كقاعدة عسكرية لهم، ثم ما لبث أن تحول إلى سجنٍ للمعتقلين السياسيين في عام 1970.

في ذلك السجن الذي كان يحوي 6500 معتقل سياسي في الوقت ذاته، أعطى النظام سجانيه صلاحيةً مطلقة بالقتل.

تم تنفيذ مجازرٍ جماعية لمرات عدة في ذلك السجن، وجميع أنواع التعذيب كانت مباحةً فيه.

وفق شهود عيان:

"تم قتل مئات الأطفال الرضّع في ذلك السجن برصاصهم الخائن، أمام أعين أمهاتهم دونما رحمة، كان العساكر يقتلون الأطفال قبل ولادتهم حتى، وذلك عبر بقر بطون النساء الحوامل.. كما كانوا يغتصبون النساء أمام أعين الرجال".

ذلك السجن المليء برائحة الموت، المتّسم بالوحشية، كان الكابوس الأسوأ لك مواطن سوري.

فكلمة سجن تدمر كانت تعني الموت، التعذيب، الاغتصاب، الدم والذهاب بلا عودة، كذلك كان السجن الذي اعتُقل فيه زوج وردة.

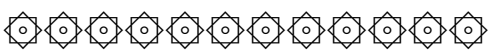

كان يوماً صيفياً مشمساً، استيقظت المدينة فيه باكراً..

وصلت وردة أخيراً إلى سجن تدمر -الذي كان يقع خارج المدينة من الناحية الشمالية- ووقفت تنتظر زوجها في المكان المخصص لمقابلة السجناء.

كان ذلك المكان غريباً، تفوح منه رائحة الحزن، وشبح الموت منتشر في كل بقعة فيه، أما الرحمة فلم تعرفها تلك الأرض قط.

في ذلك المكان لا ترى فيه الإنسان إنساناً...

حيث كانت أجمل أيام السجناء فيه هي أيام الزيارة، لمن يضحك له القدر ويتجرأ أحد من ذويه ليأتي لزيارته.

اللقاء مع الأحبة.. الحديث والنظر إليهم من وراء قضبان حديدية لعدة دقائق في العام كانت كفيلةً بأن يعيش الإنسان إحساساً مختلفاً.

حتى وإن لم تتمكنوا من لمس من تحبون، إلا أن تلك الزيارات كانت تضيف إلى قلوبكم بهجة مفعمةً بالحنان.

حتى وإن لم تتمكنوا من الحديث إليهم مطولاً، لكن رؤيتهم لبعض الوقت كانت تسعدكم من جهة، وتزيل القلق عن صدوركم من جهة أخرى.

أما من كانوا وراء القضبان، فأكثر ما كانوا يتلهفون لرؤيتهم هم أطفالهم.. فهم أكثر من كان يدخل السعادة إلى قلوبهم.

ذكرياتكم مع من تحبون، كانت تخلق غصّة في قلوبكم، غير إن ضحكاتهم كانت تضيف لحياتكم معنىً.

تجلس وردة، وقد اختلطت مشاعرها في داخلها، اللهفة.. الخوف.. الأمل.. نفاذ الصبر.. وهي تنتظر أن يطل عليها زوجها وبهجة فؤادها.

وردة.. وردة.. من وراء القضبان الحديدية سمعت زوجها يناديها، أدارت رأسها من مكانها الذي تجلس فيه تجاه القضبان لترى خالد.. صاحب العينين السوداوين..

وبذهول شديد، أسرعت نحوه مخلفة وراءها أطفالها شوقاً ولهفة للقاء حبيبها.

لم تصدق ما رأته عيناها، تساءلت في نفسها: هل هذا الرجل الذي يقف أمامها هو ذاته زوجها الذي أمضت عمرها برفقته على وسادة واحدة؟! هل هو من غمر حياتها سعادة وسروراً سنين طوالاً؟!

نعم إنه هو.. إنه خالد.. غير أنه فقد الكثير من وزنه.. فقد معها الكثير من ملامح شخصيته، مع تلك الآثار التي تظهر على وجهه ويداه من شدة التعذيب.

كانت آثار التعذيب تغطي جسده.. تنتشر في كل بقعة وكأنها أختام ذات أشكال وألوان مختلفة.. يا الله.. كيف يمكن للإنسان أن تتغير ملامحه على هذا النحو؟!

خمد نور عينيه اللامع، كان جسده الذي لا يقوى على الوقوف يشي بأنه سلمه إلى أيدي الموت الباردة، من شدة ما لاقى من ألم وفظائع.

بكت وردة حال زوجها التي يرثى لها، غير أن مجرد رؤيته تكفي لأن تعيد إلى قلبها الخفقان، وتعيد سريان الدم في علوقها من جديد..

توأم روحها، ورفيق دربها، لطالما كان قلبها يلتهب شوقاً لرؤياه..

لم يمت..

إنه لا يزال حياً..

ذلك ما كان يؤنس فؤادها على الأقل.

أما خالد.. فكان يسأل عن أخبار الحياة خارج السجن، وهم يقصون عليه الأيام الجميلة والسيئة التي عاشوها.

لم يكن هنالك متسع من الوقت للخوض في تفاصيل متنوعة، كما أن كل كلمة تُقال هناك محسوبة على قائلها، فإنهم يراقبون كل ما يقوله السجناء وزوارهم.

كان كل من وردة وخالد يكبت في نفسه الأوجاع والمآسي التي عايشها كل منهما، كي لا يحزن أحدهما الآخر، يحاولان أن يتحدثا عن الجميل الذي تخلل حياتهم.

أما الأطفال فقد تحمسوا كثيراً لرؤية والدهم.. لكن سرعان ما تلاشى ذلك الحماس أمام شخص لم يسبق لهم أن رأوه على حاله تلك مطلقاً.

فالقضبان الحديدية، والزي الموحد، وآثار التعذيب غيرت ملامح أبيهم، ليصبح شخصاً آخر لم يعرفوه من قبل.

"ابنتي.. بُني.. فلذاتُ كبدي كيف حالكم؟ ألا زلتم تُغضِبون أمكم؟" كان ينادي خالد أبناءه..

التصق الأب والأبناء من كلتا الطرفين بالقضبان الحديدية علّهم يتحسسوا أجساد بعضهم بعضاً.. لكن دون جدوى، فلم يستطع الأب لمس أطفاله حتى كادت أجزاء يديه تخرج من الطرف الآخر علّه يحظى بلمسة تسلي نفسه بذكراها في قابل الأيام، إلا أن ذلك لم يتسنى لهم..

في هذه الأثناء قُرع جرس الرحيل...

أربع أو خمس دقائق كانت مدة الزيارة.. إنها قصيرة جداً، كان ينبغي أن يسكن الجميع ويهدؤوا، ويفسحوا المجال لعيونهم فقط أن تشبع من النظر إلى بعضهم بعضاً، ويطلقوا العنان للخيال أن يعيش دهراً بقدر هذه الدقائق الخمس..

انتهت الزيارة.. ولم تُطفئ لهيب شوقها.. لم تشبع وردة من صاحب العينين السوداوين، ولهيب اشتياقها إليه لم يهدأ بعد.

كانت على وشك أن تقول لحبيبها: "انتبه لنفسك"، لكن جرس الرحيل قُرع مرة أخرى..

"هيا غادروا المكان حالاً، انتهت مدة الزيارة" ناداهم بصوت صاخب..

"استودعت أبنائي عند الله ومن ثم عندك" ناداها زوجها بصوت خافت يشوبه الحنين، وقد أوشك على البكاء، ولوّح لها بيده.

الايمان الذي يرافقكم كمسلمين هو وحده من يعطيكم قوة التحمل للعيش في دنيا لا ترحم.

حتى في لحظاتكم الأكثر سوءاً، كان دعاؤكم الله يحيي قلوبكم من جديد، ويعطيكم الأمل والصبر على تحمل الصعاب.

في ذروة تلك المشاكل، كانت صلاتكم، وأيديكم الممدودة نحو السماء تحلّيكم بالصبر، وتبشركم بالجنة.

لذلك تستطيع أن تكملوا حياتكم اليومية بشكل طبيعي على الرغم من كل تلك الآلام البشعة التي عايشتموها.

"إن مع العسر يسرا"، ربما تكون هي الدافع الأساسي وراء امتلاككم القوة للعودة إلى الحياة من جديد.

غادرت وردة السجن مرغمة وهي تردد قائلة:

"عندما تجد نفسك حائراً في فراغ كبير، وتدرك أنك لن تستطيع التغلب على مآسي الحياة بمفردك، فاتجه إلى الله عز وجل".

تركت هناك حبيبها.. قلبها.. عشقها.. وكأن لسانها قد انتشل من مكانه.

كانت صامتة.. حزينة.. تكاد لا تشعر بالهواء الذي تتنفسه.

غابت عنها العبارات والكلمات والحروف.. وكأنها تلوم الكائنات التي من حولها جميعاً.

غادرت المكان بصمت، تمشي وكأن الحزن الجبل الجاثم على كاهلها..

ركبت السيارة من أجل العودة..

غادرت المكان بنظراتٍ بريئة، وعيناها قد اغرورقت بالدموع، إلا أنها تركت فؤادها في ذلك المكان.

كانت على طول طريق العودة تتذكر كلمات زوجها الأخيرة: "استودعت أبنائي عند الله ومن ثم عندك".

انغرست عبارته تلك في أعماق أعماق عقلها، إذ لم تكن بالجملة الغريبة عنها، فقد قالتها أمّها لخالها قبل سنوات عدة..

"يا رب" دعت وردة الله قائلة:

"ربنا لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين".

خرجت الآية من قلبها المكتوي بلوعة الألم لتجد طريقها بين شفتيها..

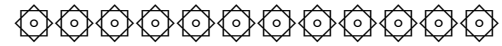

وصلت وردة إلى منزلها في ساعة متأخرة من الليل، لتجده غير مرتّب، كما غادرته صباحاً.

بدأت بترتيب الفوضى التي كانت تعمُّ المنزل، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه منهمكة في توضيب المنزل كانت تسرح في سرها بترتيب ما عليها أن تنهيه من أعمال، كما كان بالها مشغولاً بزوجها الذي تركته على تلك الحال.

زواجها.. أطفالها.. أيامها السعيدة.. السجن، كل ذلك كان يتسلسل في خاطرها كأنه شريط فيلم.

بعد تلك الأحداث غدت حياتها رتيبة، أيامها عادية، يشبه بعضها بعضا، أصبح جل اهتمامها في عملها.

عادت الحياة إلى طبيعتها بعض الشيء في حماة، وبدأ الناس بتضميد جراحهم.

كانت وردة تكسب قوت يومها وإعالة أبنائها ومصاريف دراستهم من خلال عملها بالحياكة.

بعد سنتين.

مدينة حماة كانت قد داوت جراحها، وأصبحت الحياة فيها طبيعية كالمعتاد.

بدأ أثر الآلام والجراء يخبو قليلاً على الناس، وبدأت المدينة تستجمع أنفاسها ببطء.

نسيت المدينة المجازر والقذائف، وبدأت تُلملِم جراحها شيئاً فشيئاً.

أبناء وردة، دلال -هي الكبرى- ووفاء وعباس كانوا قد تقدموا في العمر، وبدأوا يشعرون باليُتم.

يشتاقون إلى والدهم كثيراً، يسألون أمهم عن مكانه في كل حين..

يرتادون المدرسة كالمعتاد، ويكبرون مع مضي الأيام..

فالأب بالنسبة للأبناء يعني عشقاً وملجأً واستقراراً، بالنسبة للبنات منهم على وجه الخصوص.

فكان ضمّه لهم إلى صدره بذراعيه الكبيرتين، وعبثه بشعرهم يعني لهم الكثير.

إذا لم يكن الأب موجوداً في الاسرة.. فإن أساس الآلام يبدأ من هنا..

تتوقف الحياة عند الأطفال، ويتحولون فجأة إلى أبطالٍ يائسين لحكاية حزينة جداً.

الفتيات خاصة.. كانوا يصمتون وكأنهم أقسموا على الصمت، يُظهرون الخجل، منطوين على أنفسهم، يغضبون على الدنيا كلها، يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى طوال اليوم من أجل عودة أبيهم إلى المنزل.

لكن.. الأب لن يعود.. وهم على دراية بأن الآباء لا يعودون من المكان الذي ذهبوا إليه.

الخجل والانطواء أصبح طبعاً فيهم، فلا يختلطون بجيرانهم، ولا يقبلون شيئاً من أحد، تقوقعوا على أنفسهم، وعلا وجوههن الخجل، الحزن يملأ أنفسهن، إلا أنهن لا يبدين ذلك للعلن.

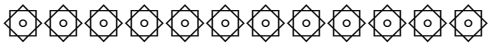

لم ترَ وردة زوجها منذ سنين، كان شوقها إليه يملأ ما بين السماء والأرض، وبدأ أبناؤها يعرفون معنى الفراق مؤخراً، فقد كانوا في شوق شديد لرؤية والدهم.

كان على وردة أن تجد حلاً، وأن تسعى لزيارة أخرى لزوجها، إلا أن زيارة المعتقلين السياسيين كانت ممنوعةً، ونظام البعث لا يسمح لأي أحد برؤية عائلته.

"بابا".. نسي الأولاد تلك الكلمة..

أما وردة، فكان لهيب شوقها إلى زوجها كبيراً، وألمها على فراقه بات يأكل من جسدها، وأثر صعاب الحياة بدأ يظهر واضحاً على نحول جسدها.

كان يوم الخميس.

استيقظت وردة لتوها، وقفت أمام مرآة مستديرة قديمة، موضوعة فوق خزانة بالية، لتُمعن النظر إلى نفسها.

لم تكن تهتم بنفسها كثيراً، كانت ترتدي زياً عادياً، وفجأة تداعى إلى مخيلتها صاحب العينين السوداوين، وبدأ تتذكره.

بدأت سلسلة الذكريات تعبُر مخيلتها واحدة تلو الأخرى، وبدأ الشوق يزيد لهيبه في نفسها، حتى عزمت على الذهاب لزيارته.

ابتعدت عن المرآة، وخرجت من غرفتها مسرعة نحو غرفة أبنائها، وهي لا تزال مرتديةً ثياب النوم، أمعنت النظر في أبنائها وهي تقلبهم يمنة ويسرة..

ثم اتجهت نحو الخزانة القديمة ذات اللون الجوزي، لتخرج محفظتها التي كانت قد خبّأتها فيها، ثم أخرج منها نقوداً كانت قد ادّخرتها، لتَعُدّها بتأنٍ وروية.

وبعد أن فرغت من عدّ النقود قالت: "الحمد لله، لدينا من النقود ما يكفينا للذهاب والعودة".

بدأت السعادة تغمر وردة، والبهجة تعلو وجهها، فبعد مضي عامين طويلين ستذهب للقاء زوجها صاحب العينين السوداوين.

كانت قد اتخذت قرار المضي لزيارة زوجها، وبدأت بالتحضير لذلك الأمر.

اتصلت بسيارة الأجرة القديمة ذات اللون الأصفر، ذاتها التي استقلتها في المرة الفائتة، وطلبت أن تكون جاهزة أمام باب منزلها في تمام الساعة التاسعة.

وبعد مضي وقت قصير، إذ بسيارة الأجرة تقف أمام باب المنزل.

أخذت وردة بيد أبنائها عن يمينها ويسارها، وخرجت من المنزل بفرح وسرور.

ساعدة أبناءها على ركوب السيارة، ثم ركبت هي أيضاً، وبدأت بقراءة دعاء السفر قبل الانطلاق..

كان قلبها ينبض بشدة، وتتخيل بعينيها المليئتين بالأمل أنها قطعت الطريق ووصلت إلى وجهتها.

كانت كل ذرات جسدها مشبعة بالحب والعشق، ولهيب الشوق للقاء زوجها.

في هذه المرة، كبر الأطفال قليلاً، وازداد شوقهم للقاء أبيهم، لذلك لم يجلسوا بهدوء طوال الطريق، فإن الشوق والأمل بلقاء أبيهم يمنعهم من ذلك.

كانت وردة توجه أبناءها للجلوس وعدم الحركة من ناحية، ومن ناحية أخرى ترقُب الطريق بكلتا عينيها، متأملةً الوصول إلى السجن الذي يقبع فيه زوجها.

ارتدت وردة عباءتها السوداء القديمة التي بَهَتَ لونها، واهترأت أكمامها وياقتها، إذ إنها لم تستطع شراء غيرها لعدم توفر ما يكفي من المال لديها.

وغطت رأسها بشال أبيض اللون، كانت قد أهدتها إياه جارتها بعد عودتها من الحج، وبدا ملائماً لوجهها.

تختلس وردة أنظار السائق، لتخرج من محفظتها مرآتها الصغيرة المستديرة، وتطأطئ رأسها إلى الأسفل، وتسترق نظرة إلى وجهها، تدلّكه قليلاً بيديها، ثم تُعيد المرآة إلى مكانها، لا تمضي بضع دقائق لتعاود الكرة ثانية..

لا تنفك عن الحركة طيلة الطريق، وهي ترتب ملابسها.. تقوِّم حجابها.. تمسح أكمامها وياقتها بيديها.. علها تفوز بحب زوجها، "يجب أن يراني زوجي جميلة" تقول في سرها.

وها هي تصل إلى سجن تدمر بسلام، بعد رحلة طويلة ومتعبة، نزلت من السيارة في المكان المخصص للوقوف قبل باب السجن بقليل، تركت أبناءها يجلسون على أرضٍ رطبةٍ بجانب موقف السيارة، ومشت بخطوات سريعة نحو باب السجن.

اتجهت نحو ممر الحاجز العسكري، وكان ضيّقاً مهملاً تتقدمه أكياس مملوءة بالرمال، "خير يا خالة، ماذا تريدين؟" نادى الجندي الذي لاحظ قدوم وردة بصوت قاسٍ.

غضبت وردة لمناداته لها بـ: خالة، إلا أن الزمان والمكان لم يكونا مناسبين للتعليق على ذلك باي كلمة.

قالت، وبصوت خجول: "أمم.. زوجي مسجون هنا، حاولتُ مراراً زيارته، غير إنه لم يُسمح لي بذلك، هل يمكنك أن ترافقني إلى المدير، علّي أستطيع الحصول على إذن للزيارة؟".

تردّد الجندي قليلاً قبل أن يجيبها، وظهرت على وجهه علائم الاستغراب من طلبها، أدار رأسه يمنةً ويسرةً ثم نظر إلى الأرض..

نزع قبعته من على رأسه بيديه، ثم اعادها إلى رأسه ثانية.. نظر إلى عيني وردة، بدا كأنه حزينٌ لأجلها، ثم أشار برأسه إلى وردة، وكأنه يقول لها: "تمام".

"يا الله! هل أنا في حلم؟" تحدثت وردة في سرها، ثم قالت: "جزاك الله خيراً يا أخي".

"انتظري أنت هنا، ولا تذهبي" قال لها الجندي، ثم مضى إلى داخل السجن.

فأجابت وردة: "تمام".

كانت تنتظر بفارغ الصبر، وهي تمشي إلى الأمام وإلى الخلف.. تنظر إلى السماء.. ثم تنظر إلى الأرض.. تصوب نظرها باتجاه السجن.. ثم تتابع السير والحيرة.. لحظات انتظار تعجز الكلمات عن وصف مشاعرها خلالها.

بعد عدة دقائق، خرج الجندي من السجن، وأشار إلى وردة بيديه، وطلب منها القدوم إليه من الطرف الأيمن حتى لا يراها أحد.

تقدمت وردة نحوه مسرعةً، وترقّبت ما سيقوله لها بإصغاءٍ تام.

قال لها الجندي: "تمام"، لكن هذه المرة الأولى والأخيرة، فأنا لم أقم بمثل هذا الأمر من قبل لأي شخص مهما كان، ثم مدّ يده طالباً منها بطاقتها الشخصية.

"لكن أنا هنا، ومعي أولادي" عقّبت وردة قائلة.

صرخ الجندي بغضب: "لا يمكن ذلك، فقد حصلت على إذن الزيارة لك فقط".

وبعد جدالٍ طويلٍ، استطاعت وردة إقناع الجندي ومن ثم مدير السجن.

فقد وضعت نُصب عينيها رؤية زوجها، وستراه مهما حصل.

شاءت الأقدار أن تجتمع بإنسان ذو ضمير، واستطاعت الحصول على إذن لرؤية زوجها مع أن ذلك كان ممنوعاً.

عادت وردة مسرعةً إلى المكان الذي تركت فيه أبناءها، أحضرتهم معها إلى باب قسم الزيارة في السجن.

بعد قليل أوصلهم الجندي إلى صالة الزيارة ثم غادر.

جلست هناك على كرسي بلا مسند تنتظر قدوم زوجها.

يا الله! كم كان ذلك الانتظار صعباً، إنه أصعب من عذاب القبر..

بعد قليل دخل عليهم شخصٌ نحيلٌ جداً، لم يبقَ من جسده إلا العظم، وجهه مليء بالجروح والكدمات، أصفر اللون، انتفخ الجلد تحت عينيه.

كانت وردة تنتظر في أحد أطراف صالة الزيارة، لمحت ذلك الرجل إلا أنها لم تلقي له بالاً، فهي لا تعرفه.

"لا يمكن أن يكون هذا زوجي" فكرة في نفسها..

"وردة.. دلال.." انبعث هذا بصوت فرح ومنهك بذات الوقت مما تبقى من ذلك الرجل..

رفعت وردة رأسها.. ونظرت نحو مصدر الصوت.. لكنها لم تعره انتباهاً، وتصرفت وكأنه شخص آخر.

ثم أمعنت النظر بذاك الرجل، وقامت بتعديل غطاء رأسها، قالت وبأسى: "لا! لا! لا يمكن أن يكون هذا الرجل زوجي، صاحب العينين السوداوين".

نعم.. إنه هو.. زوجها.. صاحب العينين السوداوين.. إنه خالد، هو مصدر ذلك الصوت، إلا إنه أصبح بحالة يرثى لها.

تقدمت وردة نحو القضبان الحديدية.. رفعت يديها وأجهشت بالبكاء.

اختفت الابتسامة من وجهها، وأصبحت عيناها شديدة الاحمرار من كثرة البكاء..

خالد صاحب البنية القويمة، والجسم المعتدل، الذي يزن قرابة 75 كيلو غراماً أصبح كالهيكل العظمي الذي لا يتجاوز وزنه 50 كيلو غراماً..

تغيّر وجهه كثيراً، وأصبح من الصعب تمييز ملامحه بسهولة.

لم تصدق وردة ما رأته عيناها، تمتمت قائلة: "آه.. آه.. آه..".

قفزت إلى مخيلتها جميع الذكريات الجميلة التي عاشتها مع زوجها بأدق التفاصيل، وتذكرت حاله القديمة، شعره.. عيناه.. طوله.. وشفتاه.

لم تستطع الدعاء على أولئك الظلمة خوفاً منهم، لم يبق لدى زوجها القدرة على الكلام، إذ إنه بالكاد يستطيع الحركة.

كانت حاله تصف الظلم والقهر الذي تعرض له في ذلك السجن وقلة حيلته.

وبدل أن يتغزّل بجمال زوجته، إذ به يقول: "أنا بريء.. وهذا ما يحزنني".

وبدل أن يمنحها جرعة أمل كبيرة، إذ به يعطيها خاتم الخطوبة، الذي أصبح أكبر بعشر مرات من اصبعه.

كان ينبغي أن يقول: أنا معك في السّراء والضّراء، في الشباب والشيخوخة أنا معك. أعاد إليها آخر ما تبقى لها من ذكراها..

أصبح خالد بالكاد يُرى من شدة نُحولِ جسمه، وضعف بنيته..

بعد ذلك المشهد، بدأ يحزن على زوجته وأطفاله أكثر من حزنه على نفسه، لكنه كان يخفي ذلك الحزن.

كانت وردة تكثر من الشكر على الرغم من كل تلك الآلام، وتفكر بطرق للتخلص من تلك الأوجاع..

بعد قليل تم إخراج وردة من السجن عُنوةً.

بكت كثيراً.. جميع آمالها التي تتعلق بزوجها اختفت، اقتنعت أخيراً بأن زوجها لن يعود ثانية.

كانت تنتظر وردةَ أيامٌ صعبةٌ جداً، لتعيشها بصعوبتها تلك.

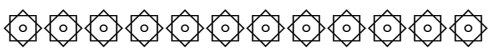

بعد ثلاثة أشهر

تعبت وردة كثيراً في ذلك اليوم، لم تعد تملك القدرة على الوقوف على قدميها، استيقظت مع شروق شمس الصباح، صلّت صلاة الضحى، علّ نفسها ترتاح قليلاً.

جلست على أريكةٍ مغطاةٍ برداءٍ مرسّم في الطرف الأيمن من الصالون.

شعرت بالتعب أكثر وهي جالسة..

مدّت يدها إلى وسادة صغيرة مربعة الشكل، ذات لون أحمر، موجودة على الطرف الأيمن من الأريكة، وضعتها تحت رأسها وتمددت.

وضعت يديها تحت رأسها مشبكة بين أصابعها وصوبت النظر بعينيها إلى الأعلى.

استرخت وبدأت تشعر بالراحة، وكأن الراحة بدأت تسري من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها.

قُرِع الباب وهي على تلك الحال، لشدة تعبها لم تكن تقوى على فتح عينيها، إلا أن قرع الباب لم يكون يتوقف.

"يا فتاح، من هو ذاك الذي يزعجنا في هذا الوقت من الصباح الباكر يا ترى؟".

فلا يأتي الزبائن في هذا الوقت المبكر..

نهضت وردة، تأكدت من وجود غطاء على رأسها، ثم سارت نحو اباب.

كان الأولاد لا يزالون نائمين، لذلك كانت حذرة حتى لا توقظهم.

جاءت اللحظة التي لم تكن تريد مجيأها، كان الذي يقرع الباب مرسالاً.

فتحت الباب قائلة: "بسم الله، خير إن شاء الله".

رأت أمامها رجلاً من العسكر، طويل القامة، نحيف، ذو لباس مدني، يحمل بين يديه أوراقاً.

مدّ يده إليها، وناولها الأوراق دون أن ينطق بأي كلمة، ثم غادر المكان دون أن يشرح لها سبب قدومه.

كانت وردة خائفة ومذهولة، ويداها ترتجفان.

فتحت الظرف الذي يحتوي الأوراق بتلك اليدين المرتجفتين..

نعم.. لقد كانت رسالةً تحوي خبر وفاة زوجها.

كانت محتوى هذه الأوراق خبر الوفاة، وطلب استلام الجنازة من السجن، دون أي تقرير طبي عن الوفاة من المستشفى.

تورمت عيناها من شدة البكاء، وكاد يُغمى عليها.

في تلك الأثناء استيقظ الأولاد وأجهشوا بالبكاء أيضاً.

وقعت وردة على الأرض، لم تكن تعلم ماذا ستفعل حيال ذلك الأمر، بينما كان أطفالها يعانقونها بشدة وهم يصرخون: "بابا".

كانت وردة بالكاد تلتقط أنفاسها، وتقوى على الجلوس لتبقى على قيد الحياة.

بقي الأولاد وأمهم طويلاً على تلك الحال.

باتت وردة الآن أرملةً تتكفل برعاية أربعة أطفال أيتام، هكذا كانت تنظر إلى حالها.

حبّها الأول والأخير انتهى إلى غير رجعة، لم يبق لها منه إلا تراب قبره الذي طالما تعلق به.

لن تجلس معه بعد الآن.. لن يتنزّها سويةً.. لن تتمكن من الضحك معه أو حتى البكاء في أحضانه.. انطفأت تلك العينان السوداوان، ولن تنطق تلك الكلمة بعد اليوم..

ولن تقول لأبنائها: "انتظروا.. سيأتي والدكم" بعد الآن.. هي الآن الأرملة وردة.

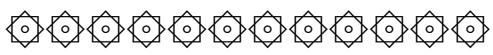

استذكرت وردة فجأة بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تعلّمتها، وبدأت تقرأ بعضاً منها كي تعود إلى رشدها.

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ".

"أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ".

إن الأجل آتٍ في حينه، في الساعة والدقيقة واللحظة المحتومة لينتزع الإنسان من بين أحبّائه، فلا يتأخر ثانيةً واحدة حتى يقبض روح الإنسان.

كل شيء في هذه الحياة مربوط بقدره وأجله.

الإنسان، والحيوان، والنبات، الأغنياء والفقراء، جمعهم لهم قدر محتوم.

فالأجل يشبه ذلك العصفور الذي يأتمر بأوامر صاحبه أن يحُطّ في مكان ما، فيحُطّ ذلك العصفور دون سؤال.

فالموت يجد الناس، ولو كانوا في أكثر القلاع أو الحصون متانة، ولو أن الإنسانية جمعاء بجنودها الأقوياء، وأسلحتها ومدرعاتها وطائراتها اجتمعوا لينقذوك من الموت فلن يستطيعوا، لأن الأجل سيصيبك.

حيثما كنت فإن الموت مدركك، في منزلك أو على سريرك، أو في عملك.

ذلك ما قالته وردة في نفسها.

تذكرت بعدها قول ابن نجيم: "من قُتِلَ مظلوماً كان شهيداً".

"كل من قتل ظلماً وعدواناً كان شهيداً، وهذا يعني أن زوجها شهيد"، هذا ما كانت تفكر به وردة.

فقد كان خالد بريئاً، لم يكن له أي ذنب، لم يظلم أحداً، ولم يرتكب أي جريمة.

كان ذنبه الوحيد أنه مسلم، مسلماً ليس له أدنى علاقة بجماعة الإخوان المسلمين.

قالت: "كم هذا جميل".

"قُتل زوجي فقط لأنه مسلم، لأنه كان يقف إلى جانب المسلمين، قتل لأنه أحب المسلمين، يا الله! يا له من شرف عظيم".

واطمأنّ قلبها أكثر عندما تذكرت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتردنّ المخيط والمخيط يوم القيامة، ولو أن شاةً قرناء نطحت شاةً جنحاء لاقتص الله لهذه من تلك، ولو أن جبلاً بغى على جبلٍ لدكّ الله باغيه".

حينها قالت: "إن حقنا لن يضيع سدى، صرخات هؤلاء الأطفال الأبرياء لن تذهب هباءً".

سيحاب الظالمون في المحكمة الكبرى، وسينالون جزاء ما اقترفته أيديهم واحدا تلو الآخر.

هدأت نفس وردة قليلاً بعد ذلك الكلام، وبدأت تستجمع قواها.

نهضت لتقف على قدميها، مسحت دموعها بغطاء رأسها الأبيض، ثم أخذت أطفالها إلى غرفة الجلوس.

جلست في الزاوية اليمنى من الغرفة، التي يغلب عليها الطراز العربي، ثم ضمت أبناءها بين ذراعيها، ومسحت على رأس كل واحد منهم، مسحت دموعهم واحتضنتهم جميعاً.

يم نهضت وتقدمت نحو الباب بعينين متعبتين قاصدةً عمّ أبنائها لتخبره بما حصل.

كانت تمشي بتؤدة حاملةً بين يديها تلك الرسالة التي كانت قد تجعدت.. كانت تفكر وهي في الطريق في مستقبلها، وفي أبنائها الأيتام، والصعوبات التي ستواجهها أثناء تربيتها لهم في قابل الأيام.

إنه ليس بالأمر السهل.. ستكبر وردة وفي رقبتها أربعة أيتام.

فقد عاشت وردة يتيمة.. وهي تدرك تماماً معنى اليُتم..

وكانت قد قرأت آيات الله تعالى في قوله: "يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم". وحفظت تلك الآية جيداً.

كانت على يقين بأن الاهتمام بالأيتام ورعايتهم والإحسان إليهم خير، وكيف إذا كان هؤلاء الأيتام فلذات كبدها؟

وبينما هي ماضيةٌ في طريقها تفكر متعبةً، تذكّرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ عَلَى يَدِهِ وَزْنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

أما وردة فستمسح بكل يوم رأس هؤلاء الأيتام، ستمشط لهم شعرهم، ستطعمهم، وتسقيهم وتهتم بهم.

ستكسب في كل يوم ثواباً عظيماً عند الله تعالى، وستكون ممن يكفلون الأيتام.

لطالما أنها كَبُرت يتيمة، وعاشت في كنف من حولها من الناس ممن رَعَوها رحمةً باليتيم.

أما الآن، فهي من ستكفل الأيتام، وستهتم بهم.

هذا قضاء الله وقدره.. بدأت حياتها يتيمة.. وترعرعت يتيمة.. كذلك سيعيش أبناؤها اليتم بقية حياتهم.. ومن يدري؟ لعلّ أحفادها سيذوقون مرارة اليُتم أيضاً.

تمضي وردة حزينةً ترافقها تلك الأفكار والأحاسيس، تمشي نحو المكان الذي خرجت من أجله.

وصلت إلى باب منزل عمّ أطفالها، أمعنت النظر كثيراً بالمنزل قبل أن تقرع الجرس.

كان منزلاً قديماً، ذو طابقٍ واحدٍ يقع وسط المدينة.

تستقبلك عند وصلولك غرفة واسعة، حيث الباب المصنوع من الحديد الأسود، والمطل على الشارع..

قرعت وردة باب ذلك المنزل القديم.

فُتِح الباب بعد برهةٍ من الزمن، ثم دخلت المنزل، كان يعمه السكون والطّمأنينة.. يبدو أن أحداً لم يكن لديه أدنى خبر..

مصطفى -عم الأولاد- زوجته -نورا- وأولاده: سامية وعلي ومحمد، كانوا جميعاً في المنزل، يتناولون الفطور ويشاهدون التلفاز.

كان ذلك المنزل -الغير مرتب- يتألف من أربع غرفٍ، وفي مدخل المنزل تجد ممراً طويلاً.

وعلى بعد عدة خطوات من مدخل المنزل المطلي باللون الأبيض، وإلى الطرف الأيمن توجد غرفة الجلوس، وإلى الطرف الأيس غرفة الضيوف، وفي نهاية الممر توجد غرفة النوم.

سامية هي من فتحت الباب لوردة، كانت ترتدي ثياب المنزل، فتحت الباب وقالت: "أهلاً خالة وردة، ما بالك؟ ما الذي جرى؟".

كانت عينا وردة منتفختين من كثرة البكاء، وأنفها شديد الاحمرار، في حالةٍ يرثى لها، وكانت تتكئ بيدها اليمنى على جانب الباب.

قالت بصوتٍ باكٍ ومرتجف: "شكراً سامية"، ثم سقطت أرضاً مغشياً عليها.

جثَت سامية على ركبتيها أرضاً وهي تصرخ، ورفعت رأس وردة واضعةً إياه على ركبتيها..

ركض كلٌ من مصطفى ونورا ومحمد تجاه سامية لدى سماعهم الصراخ، اجتمعوا حول وردة، أحدهم أمسك يدها، والآخر بدأ يمسح رأسها بالكحول، وثالثهم كان يطبطب بكفيه على وجهها كي تستعيد وعيها..

استعادة وردة وعيها بعد عدة دقائق، حملوها إلى غرفة الجلوس، لتتمدد على الأريكة لتلتقط أنفاسها، واضعةً وسادة تحت رأسها.

خرجت سامية من المنزل متجهةً إلى منزل وردة كي تحضر الأطفال.

أما مصطفى فقد أخذ الورقة المجعدة من يد وردة وبدأ بقراءتها.

صُعِق لما قرأ خبر وفاة أخيه مكتوبٌ في تلك الورقة، ويُطلب منهم نقل الجثمان من السجن.

سقط مصطفى أرضاً، وقد أسند ظهره إلى الجدار، وأخذ بالبكاء واضعاً يديه على رأسه..

مصطفى.. محمد.. نورا.. مدينة حماة.. الأرض والسماء.. كل شيء كان يشاركهم البكاء..

صبيحة يوم الثلاثاء، خرج مصطفى برفقة صديقه المقرب ورفيق دربه أبو سمير، لينقل جثمان أخيه بعد أن صلاّ الفجر في المسجد.

لم يخبر أحداً بذلك الأمر سوى صديقه أبو سمير لشدة خوفه.

لذلك، كان عليه أن ينهي مراسم الدفن بسرعة، ودون أن يُشعِر أحداً، لأن جنود نظام البعث كانوا يَشون بكل من يشارك بالجنازة، أو يقدم يد المساعدة لذوي الشهيد.

حتى الموت في هذا البلد كان أمراً مخيفاً، وكأنه جرم كبير، حتى الموتى لم يستطيعوا أن يرقدوا بسلام.

في هذا البلد، كان استلام الجثمان، والقيام بمراسم الدفن سبباً كافياً ليجعل منك إرهابياً.

في هذا البلد بدى نظام البعث وكأنّه لم يقرأ الآية القرآنية: "مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا"، أو أنّهم قرأوها ولكن لم يفهموها.

يمكنك أن تدرك بكل وضوح إلى أي حد كانت حياة الإنسان رخيصة وبلا أهمية، وفق ما كان يجري من أحداث ووقائع في تلك الأرض.

ولمعرفة مصطفى بذلك النظام، وبالأسباب التي تودي بحياة أي شخص، فإنه لم يخبر أحداً سوى صديقه المقرب أبو سمير.

انطلقوا إلى سجن تدمر بعد انقضاء الصلاة مباشرة، بواسطة سيارة أجرة كانوا قد استأجروها لذلك الغرض.

أبو سمير، الذي جلس في الكرسي الخلفي، كان يُصبّرُ صديقه طوال الطريق، ويخفف عنه، وكان مصطفى يُصغي بصمت، ويهزّ رأسه لصديقه، وكأنه يقول له: "إنك على حق" مخفياً دموعه وحزنه.

أخيراً وصل مصطفى إلى السجن، أعطى الظرف الذي فيه خبر الوفاة إلى حارس السجن الذي يقف على الباب، ثم قال: "ليدنا جثمان نريد استلامه".

رد الحارس باحتقار: "أعطني الورقة حتى أرى"، وكأنّ من يقف أمامه شخص مذنب أو إرهابي.

مدّ مصطفى يده إلى الحارس وأعطاه الورقة، ثم انتظر إلى جانب الباب بهدوء.

جاء الجندي بعد قليل وطلب من مصطفى مرافقته إلى الداخل، حيثُ أشار بيده، وكأنه يقول له: "تعال إلى هنا".

تبعه مصطفى بصمت، ليدخل إلى ثلاجة حفظ الموتى التابعة للسجن.

كان يحدث نفسه قائلاً: "هل يمكن أن توجد ثلاجة لحفظ الموتى داخل السجن؟"، لم يستطع أن يستوعب ما يحدث في بداية الأمر.

"نعم" أجاب نفسه، فإنه في مثل هذا البلد كل شيء جائز، وكثير من الأمور تحصل بالسر والخفاء، في بلد لا يوجد فيه قانون، فإن كل شيء فيه مباح، فلا قانون ولا احترام لحقوق الإنسان، بل لا قيمة للإنسان حتى.

كان مستعداً لأن يضحي بكل ما يملك حتى يستطيع أن يصرخ في وجل كل من كانوا في ذلك الكان، ويقول كل ما يدور في رأسه وقلبه، إلا أنه ظل صامتاً، وتراجع عما يدور في رأسه عندما تذكر أبناءه وزوجته وأبناء أخيه الأيتام.

سكت طويلاً، وكأن الله تعالى لم يمنح نعمة الكلام لإنسانٍ قط، إلا أنه بالرغم من صمته، كان يصرخ بداخله على جميع الموجودينَ في المكان قائلاً: "سنتقابل يوم الحساب".

كانت ثلاجة حفظ الموتى مليئة بالجثث، وآثار الدم تمرأ المكان في كل الاتجاهات.

رائحة الجثث كانت تجعل المكوث في ذلك المكان لمدة دقيقتين أمرٌ مستحيل.

لم تكن ثلاجةً كما تعهدونها، بل كانت مختلفةٌ قليلاً، إذ إنها عبارة عن عدّة غرف جُمِعت مع بعضها البعض، تحوي بضع مكيفات قديمة، موضوعة على رفوف حديدية صدِأة، موزعةٌ على يمين ويسار الغرف.

يحوي ذلك المكان مئات، بل ربما آلاف الجثث، مكدّسة فوق بعضها البعض، دون أكفان، وكأنها سلعٌ متناثرة هنا وهناك.

لم يصدق مصطفى ما رأته عيناه، وكأن عواصف تهيج في داخله.

كان يجري وراء حارس السجن دون أن يصدر أي صوت، ويفكّر في نفسه قائلاً: "يا الله، أيُعقل أنّ يقوم الإنسان بكل ذلك؟ كيف يمكن للعالم أن يقف صامتاً أمام كل هذا الظلم؟".

وكان ينتظر رؤية أخيه بفارغ الصبر.

وأخيراً وجد أخيه، ثمّ لفّهُ ببضعة أمتارٍ من القماش كان قد أحضرها معه، ثمّ حمَلَهُ إلى السيّارة بمساعدة صديقه وبعضٍ من الجنود ممّن ما يزال في قلبهم شيءٌ من الرحمة.

أخذ مصطفى جنازة أخيه وتوجّه في طريقه للعودة الى حماة، إلا أنّه لا يزال مذهولاً لا يصدق ما تراه عيناه، وكأنّه لم يعد إلى رشده بعد.

حتى أنّه لم يكن يريد أن يتذكّر أخيه.

وصل إلى حماة بعد رحلة صعبة استمرّت لساعتين، ثمّ مضى إلى المقبرة تحت ظلام الليل الحالك، ووارى جثمان أخيهِ التُراب بمساعدة عدّة أشخاص بصمتٍ تام، ثمّ عاد إلى المنزل.

إنَّ حُزنَ وردة على دفن زوجها دون أن تراه للمرّة الأخيرة، أو حتى أن تقول له كلمة الوداع، كان يزيدها ألماً على ألمها.

لم يتمكّنوا من فتح دارٍ لتلقّي التعازي من الناس بسبب الضغوطات التي يمارسها حزب البعث، بل إنهم لم يعلنوا خبر وفاته حتى.

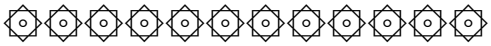

القسم الثالث:

بعد عشر سنوات
العودة إلى مارع

□□□□□□□□□□

مضت السنين، وكانت وردة قد دفنت ألمها في داخلها، إلا أنها لم تنسه قط.

فكرت وردة بالاستقرار في مدينة مارع، تلك المدينة التي ولدت فيها، وخرجت منها عروساً إلى مدينة حماة، خططت لأجل ذلك وبدأت تعد العدة.

فحماة الآن بالنسبة لها لم تعد مدينة للعيش، بل هي بمثابة مقبرة كبيرة.

لا يتبادر إلى ذهنها عند سماع كلمة حماة، إلا الحزن والوجع والموت والخوف والرصاص.

امتزجت كلمة حماة مع الألم واليتم والترمّل.

لم تعد حماة تعني لوردة شيئاً بعد اليوم.

ففي تلك المدينة دفنت أعز رجل على قلبها صاحب العينين السوداوين، وفيها رأت الظلم وألوان العذاب لسنين طوال على يد رجال نظام البعث.

بالرغم من مضي سنوات عدة، إلا أن حماة لا تزال مدينة منكوبة ومدمرة، حتى الحيوانات لم تستطع البقاء على قيد الحياة.

لم تعد ترى في المدينة أسباب الحياة، فالمياه شحيحة، والكهرباء متقطعة، لم تقم بلدية المدينة بتقديم أي خدمة للسكان.

حتى الأرض لم تعد صالحة للزراعة، وذلك بسبب الأسلحة الكيميائية التي استخدمت حينها.

بات الناس يعيشون في المدينة يصارعون الجوع والمهانة.

كانت تُعرف مدينة حماة بالمدينة المعادية لنظام البعث.

بالنسبة لوردة، فقد كان البقاء في تلك المدينة أمرٌ صعب، وبلا معنى، لذلك قررت ترك المدينة.

في هذه الأثناء كانت وردة تتواصل مع أقربائها ترجو منهم المساعدة في إيجاد منزل للإيجار، وبدأت تقوم بالتحضيرات اللازمة من أجل الانتقال من مدينة حماة.

انهمكت في توضيب أمتعتها، تحار في أمرها.. من أين تبدأ؟ تدخل غرفة وتخرج من أخرى..

دخلت إلى غرفتها، لتفتح خزانتها جوزية اللون..

نظرت بعينيها إلى طقم زوجها الرسمي، ذي اللون الأزرق، وربطة العنق الحمراء، الذي كان لا يزال معلقاً في الخزانة.. مدت يدها لتخرجه.. تنزعه من علاقة الملابس.. وتضعه أرضاً..

جثت على ركبتيها لترتب ملابس زوجها بيديها.. بدأت في هذه الأثناء ذكريات الأيام الماضية تقفز إلى مخيلتها.. كيف كان زوجها يرتدي تلك الملابس..

كانت تُرتب الملابس والحزن يخيّم عليها، مستعيدة في ذاكرتها أياماً خلت، وعندما كانت تمتلئ عيناها بالدموع توشك على السقوط، ترفع يدها لتمسحها.

وضبت ذلك الطقم ووضعته في الحقيبة، ثم أخذت تُنزل ملابس زوجها واحداً تلو الآخر.. تضمها.. وتشمها.. وتضعها في الحقيبة، متناسية بذلك جميع أوجاعها.

قامت بتجهيز كل ما ستأخذه معها من أمتعة، ووضعتها بجانب الباب.

تتفقد غرف المنزل علها نسيت شيئاً فتأخذه، ثم تعود لتقف أمام باب المنزل ثانية.

تضع كلتا يديها وراء ظهرها ساندةً إياه، وكأنها تقول: "لمَ لم يصل ذلك السائق حتى الآن".

عندها اقتربت حافلة نقل من بعيد، وبعد قليل وصل العمال الذين طلبتهم وردة من أجل مساعدتها في وضع الأمتعة في تلك الحافلة.

بدأ العمال بنقل الأغراض إلى الحافلة، ووردة وأبناؤها يحملون أشياءهم الشخصية، ويساعدون العمال في توضيب الأمتعة في الحافلة، وذلك من أجل الخلاص من تلك المدينة السوداء.

لم يستمر العمل طويلاً، لينتهي العمال من حمل جميع الأمتعة إلى الحافلة خلال وقت قصيرٍ جداً.

فقد قلّت أمتعتها كثيراً بعد أن قامت بتوزيع كل ما لا تستخدمه صدقةً على روح زوجها، ولم يتبقى لها الكثير.

شاهد أحد العمال صورةً متوسطة الحجم ذات إطار أصفر، انحنى لأخذها معتقداً أنهم قد نسوها، فأمسك بها من زاوية الإطار ليقوم برميها إلى الحافلة..

لاحظت وردة ذلك، فأسرعت نحوه قائلةً: "توقف، لا ترم هذه الصورة، أعطني إياها".

أعطاها العامل تلك الصورة وتابع عمله، أخذت وردة الصورة، أزالت الغبار عنها بطرف ردائها.

التقطتها بكلتا يديها.. رفعتها إلى الأعلى.. وأمعنت النظر فيها مستاءةً.

قربتها من وجهها، وطبعت قبلةً كبيرة عليها، ثم لفتها بالورق ووضعتها في حقيبتها.

انتهى العمال من تحميل الأمتعة، واستعدت الحافلة للرحيل.

اقترب السائق من طرف الحافلة الأيسر، كانت الحافلة ذات لون أبيض، وطراز قديم، كان السائق أسمر اللون، كثيف الشعر، في الثانية والعشرين من عمره.

فتح السائق باب الحافلة، ووقف ينتظر.. بينما جلس العمال إلى جانب الجدار متعبون، ويدخنون السجائر..

أغلق باب الحافلة بعد انتظار دام طويلاً، ثم مضى إلى داخل المنزل صارخاً: "أين تلك الخالة؟ لقد تأخرنا".

أما وردة فكانت في غرفة الجلوس تتحسسُ الجدران بيديها وتقبلها.

لم تكن تودع المنزل فقط، وإنما تودع كل الذكريات التي عاشتها في ذلك المنزل.

من يدري؟ كم مرةً نظفت فيها جدران هذا المنزل؟

من يدري؟ كم تخفي هذه الجدران أسراراً وذكريات؟

لم يبقَ لوردة غير تلك الجدران وذكرياتها..

ناداها السائق قائلاً: "هيا يا خالة.. نحن بانتظارك"، ثم عاد إلى الحافلة وتبدو على وجهه علائم الانفعال.

انطلقت الحافلة بعد قليل، كانت الساعة قرابة العاشرة.

صعدت وردة وبناتها سيارة الأجرة التي طلبوها لإيصالهم، بينما رافق عطى حافلة النقل.

كان الجو بارداً بالرغم من أنهم في شهر تموز من فصل الصيف.

جلست وردة على الكرسي الأمامي، تدير وجهها نحو اليمين تراقب الطريق.

كانت تشاهد المنازل المهدمة واحداً تلو الآخر، وعينيها تمتلئان حزناً.

اختفت تلك المدينة الطيبة المليئة بالخيرات، ليحل محلها مدينة جرداء، يبُست الأشجار وماتت الأزهار، وغابت رائحة الطبيعة العطرة ليحل محلها رائحة البارود والأسلحة الكيميائية.

بدت الحقول الممتدة على طول المدينة وكأنها حزينة ووحيدة، اقترب وقت حصادها.. إلا أنها لم تكن تحوي شيئاً ليُحصد..

كان السائق يُمسك مقود السيارة بيده اليسرى، ويقلب أشرطة الأغاني المسجلة بيده اليمنى..

وجد أخيراً شريطاً مسجلاً للورين برزنجي، فوضعه في مسجلة السيارة، وقام برفع الصوت، ثم تابعوا طريقهم وهم يستمعون إلى أغاني الوداع..

كانت وردة تتأرجح بين الحين والآخر، نتيجة اهتزاز السيارة في تلك الطرق الوعرة، ثم تعاود تقويم جِلستها متابعة أنغام تلك الموسيقى.

انتهت تلك الرحلة بوصولهم إلى مدينة مارع، وذلك بعد أن استغرقت الرحلة من وقت الظهيرة حتى أذان المغرب.

مارع.. تلك المدينة التي ولدت فيها وردة.. وترعرعت.. هي المدينة التي عاشت فيها أيامها بحلوها ومرها.. عاشت اليُتم فيها وهي طفلة.. هي تلك المدينة التي أمضت فيها ربيع شبابها..

كانت مدينة مارع جميلة بهدوئها، ومناخه اللطيف.

أبنيتها القديمة، ومساجدها كانت توحي بصبرها بوجه الزمن..

ها هي وردة تعود إلى مدينة مارع بعزيمةٍ وإصرار. مقاومة لكل الآلام والأوجاع..

كان حسن وميسم وطه، أبناء أخيها بانتظارهم أمام المنزل الذي قاموا باستئجاره عند وصولهم.

كان حسن في الثالثة والعشرين من عمره، ذو لحية خفيفة، وشعر طويل، وبشرة بيضاء، كان متزوجاً وأباً لطفل وحيد، وكان يعمل في صيانة الحواسيب.

أما ميسم فكان أكبر من حسن، تزوج من قريبةٍ له، كانت تعمل مدرسة، ولديهم ولدان.

أما طه، فقد كان في السابعة عشرة من العمر، وهو طالب في المرحلة الثانوية.

مضى وقت طويل لم تر فيه وردة أبناء أخيها، لقد تغيرت ملامحهم كثيراً.

تقدم حسن بخطوات بطيئة تجاه السيارة التي وقفت بباب المنزل، فتح باب السيارة، ثم قال بصوت مبتهج تعلوه نبرة استياء: "أهلا وسهلاً عمتي".

بالكاد استطاعت وردة الإجابة بالقول: "أهلاً بك حسن".

نظر حسن إلى عيني عمته ثم قال لها بصوت منخفضٍ أجش: "لقد لاقى ربه، وإن شاء الله سيكون من الشهداء، والشهداء أحياءٌ عند ربهم لا يموتون أبداً، يحيطون بنا ويشفعون لنا".

قالت وردة بشفاه مرتجفة: "هو.. كان إنساناً لطيفاً جداً، كان يصلّي جميع الصلوات المفروضة في المسجد على وقتها، لم يكن يظلم أحداً، يهتم لأمر الفقير، ويفعل الخير سراً، لم أر منه سوى الخير، اعتُقل ظُلماً، وقُتِل ظلماً، إن شاء الله شهيداً".

شارك ميسم -الذي كان يستمع إلى الحديث بكل هدوء متكئاً بيده إلى يسار السيارة – قائلاً: "عمتي.. اصبري، إن الله سيجازيك خيراً على صبرك هذا، ألم تلمي أن الله مع الصابرين؟ اعلمي أنك أرسلت زوجك -الذي هو أغلى ما تملكين- إلى الجنة التي نبتغيها جميعنا".

حَنَت وردة رأسها قليلاً، ثم لملمت عباءتها بيدها اليسرى، وفتحت باب السيارة بيدها اليمنى.

قالت أثناء نزولها: "حبيبي ميسم، أنا مسلمة ولله الحمد، والله هو من أعطى وهو من أخذ، أنا فقط حزينة لأجل هؤلاء الأيتام".

ولم تستطع منع دموعها في تلك اللحظات..

أخذ ميسم بيد عمته مسنداً إياها إلى كتفه كي لا تسقط، ولم يستطع أن يقول لها إلا: "أنت على حق يا عمتي"، أمام تلك الدموع التي كانت تذرفها.

اجتمع الجيران بعد قليل، وبدء كل منهم بالترحيب بالقادمين، ويقدمون يد العون لهم، حيث أخذ كل واحد منهم شيئاً من السيارة ليدخله إلى المنزل.

ثم قالت وردة -بصوت تعلوه نبرة دعابة، كي تزيل حالة الكآبة عن الحاضرين-: هيا... لقد تعبتم، وأنتم تستحقون كوباً لذيذاً من الشاء، وها هي الشاي مكافأة على تعبكم". ثم وضعت إبريق الشاي في وسط الحاضرين.

قال الجميع: "جزاك الله خيراً، لقد أحضرت الشاي في الوقت المناسب".

انتهى الضيوف من احتساء أكواب الشاي، وشكروا وردة، ثم انصرفوا من المنزل قائلين: "نراكم لاحقاً".

حاول حسن إقناع عمته بالقدوم معه إلى منزله، لكن وردة لم تقبل، وكانت تعتذر عن الذهاب قائلة: "لدينا أعمال كثيرة يجب علينا إنهاءها".

أحضر حسن وإخوته الطعام لوردة وأبنائها، بعد أن عجزوا عن إقناعها بالذهاب معهم، ثم انصرفوا إلى بيوتهم قائلين: "نراكم غداً".

تناول الأطفال طعامهم، دون أن ينتظروا مشاركة أمهم لهم، ثم اتجه كل واحد منهم إلى زاوية من زوايا الغرفة، وناموا من شدة التعب.

قامت وردة بوضع بساط في تلك الغرفة الرطبة، ذات الأرضية الإسمنتية، الكائنة على يسار مدخل المنزل، حتى ينام عليها الأطفال، ثم قامت بنقلهم إلى تلك الغرفة، فقد نام الأولاد دون وسائد على ذلك البساط من شدة تعبهم.

اتجهت وردة نحو المغسلة كي تتوضأ من أجل صلاة العشاء، وذلك بعد أن قامت بترتيب المكان.

توضأت وردة، ثم جالت جابت المنزل الذي سادته الفوضى بحثاً عن سجادة الصلاة، أخرجت غطاء الأريكة ذي اللون الأحمر المزركش -بعد أن يئست من إيجاد سجادة الصلاة- وكان قد ظهر طرفه بجانب عدة ملابس من كيس كبير، ثم طوته أربع طيات، ووضعته على الأرض.

كانت تتحرك بسرعة متشوقة للبدء بالصلاة، فوجودها بين يدي الله عز وجل، وقربها منه أثناء السجود، في ظلام الليل وهدوئه يريح قلبها.

"الله أكبر" وبدأت وردة بالصلاة.

كانت الآيات والسور التي تقرأها أثناء الصلاة تنعش قلبها وتريحه.

كانت عندما تقف على سجادة الصلاة تشعر وكأن الناس كلهم قد اتحدوا ووقفوا صفاً واحداً مطأطئي رؤوسهم أمام رب العالمين.

في تلك الأثناء تشعر وردة وأكنها تسبح في اللانهاية.

"سبحان ربي العظيم" عندما تقولها وردة تستشعر في قلبها مرة أخرى عظمة الله جل وعلا وكماله، وأن الإنسان هو وحده من اختص بالنقصان، ويرتعش فؤادها عندما تقول: "سمع الله لمن حمده".

فإن الله تعالى يسمع قولها في تلك اللحظة، فهو جلّ في عُلاه يسمع ويرى كل شيء، فقد سمع الله ما قالته وردة، وكُتبَ لها أجرٌ في صحيفة أعمالها.

تسجد وردة وتشعر نفسها بين يدي ربها، فأقرب ما يكون العبد من خالقه في السجود.

هي لحظة التقاء الروح مع خالقها، لذلك كانت وردة تطيل السجود متضرعة إلى ربها بسكينة وإيمان.

سجدت وردة قائلة: "الله أكبر".

سجدت وأكنها عبرت إلى عالم آخر.

عندما لامست جبهتها الأرض، شعرت وكأنها تطير بين السماوات والأرض.

بعد أن أنهت تسبيحات السجود، بدأت بالدعاء واللجوء إلى الله باكيةً.

نهضت من سجودها تغمرها الراحة والطمأنينة بعد أن ألقت بكل آلامها، وناجت ربها بكل ما يُضني قلبها، ويمزق فؤادها.

كانت تؤدي صلاتها بكل هدوء وسكينة، تشعر بمتعة مع كل ركنٍ وحركةٍ تؤديها في صلاتها.

وما إن أنهت صلاتها، رفعت كلتا يديها إلى الأعلى داعية:

"اللهم زدني قوةً إلى قُوتي، واحفظني وأولادي وجميع المسلمين من كل سوء وشر.

يا رب المستضعفين والفقراء.. احم جميع المظلومين على وجه هذه الأرض، وكن عوناً لهم.

اللهم احم أبنائي من كل بلاء ومصيبة، ويسر أمرنا واجعلنا ممن رضيت عنهم من عبادك الصالحين.

يا قادر يا الله..

بعطفك وكرمك، أكرم علماءنا وشيوخنا بالحكمة والموعظة الحسنة، وأغنياءنا بالبذل والعطاء، وشعبنا بالإيمان، وشبابنا بالعفة والطهارة، والمستضعفين منا بالأمل.

يا رب.. يا ذا القوة المتين..

يا من حرّمت الظلم ولم تقبله لغير المسلمين من اليهود والنصارى، انظر بعين العطف والرحمة وارفع الظلم عن المسلمين، فأنت وحدك الأعلم بما يتعرضون له من ظلمٍ، وما يعيشونه من عذاب..

يا قوي يا الله..

احم بلادنا وشعبنا، وخلصهم من أولئك الظلمة، ولا تجعلنا لعبة بين أيديهم يا رب".

ثم ختمت دعاءها بقولها: "آمين، استجب يا الله". وأخفضت يديها إلى ركبتيها.

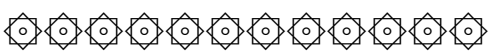

مضت شهور وسنين، وكبر أولاد وردة، وأصبحوا في سن الزواج.

ربّت وردة أبناءها الأربعة تربية صالحة، ليكونوا أصحاب دين وعقيدة، وذووا خُلق حسن.

لكن قلقها على أولادها كان يزداد يوماً بعد يوم، مع مضي الأيام وتقدمهم في السن.

كان قلبها يرتجف عندما يذهب أحدهم إلى مكان ما، أو حتى يغيب عن عينيها..

فهي من رعتهم تحت جناحيها وفي كنفها، واعتنت بهم بعطفها وحنانها.

كان حِملاً ثقيلاً، فرعاية أربعة أطفال ليس بالأمر السهل.

كانت تقول دائماً: "أرجو من الله تعالى أن يعينني على تزويجهم، ويطيل في عمري كي أرى أبناءهم"، لذلك كانت ستوقل: "نعم" لأول من سيتقدم بطلب الزواج بإحدى بناتها.

لم تكن تريد لبناتها أن يذوقوا ما ذاقته من آلام وأوجاع.

زوجت جميع أولادها، واحداً تلوَ الآخر، حيثُ بدأت بالبنت الكرى، ثم أختها الأصغر، وبعدها زوجت ابنها، وآخر من تزوج كانت البنت الصغرى.

كانت وردة سعيدة بتزويج أبنائها، وأسس كل واحد أو واحدة منهم عشاً زوجياً، وأنجبوا الأطفال أيضاً.

عادت الحياة إلى سالف عهدها، وعاد كل شيء إلى طبيعته.

فالحياة مستمرة، والإنسان يستطيع أن يتعايش ويتأقلم مع كل شيء في أي زمان ومكان.

وتمضي الأيام، وتقضي وردة حياتها برفقة أبنائها وأحفادها، محاولة نسيان ألمها الدفين في داخلها.

وهي تشيخ وتكبر مع تقدم أحفادها بالسن.

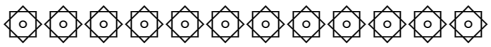

الجزء الرابع:

بعد اثني عشر عاماً...
في عام 2011...

□□□□□□□□□□

الثورة السورية والأيام القاسية

في هذه الثورة -التي تحولت إلى حرب على الشعب- مارس هذا الشخص الذي يُدعى بشار الأسد أربعة أضعاف ما مارسه أبوه من ظلم في الفترة ما بين السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي.

استخدم الأسلحة الكيميائية، وكان يقتل الناس الأبرياء بلا رحمة، ودون أي سبب.

اندلعت الحرب في سوريا، بعد أن بدأت بمظاهرات سلمية، كانت شرارتها تعذيب الطفل الشهيد، ذي الثلاث عشرة ربيعاً، وإطفاء السجائر على جسده، والذي يُدعى حمزة.

قام نظام الأسد بقتل ملايين الناس من أجل بث الرعب والخوف داخل صفوفهم، فأمطرت الطائراتُ الأسواق والمدارس والشوارع والقرى والمدن بالقنابل والبراميل المتفجرة.

مع بداية الربيع العربي بدأت الانقلابات في دولٍ عدة، إلا أن إرادة الشعب بتغيير تلك القيادات الديكتاتورية ووجِهت بالقتل، من أجل أن يحمي كل ديكتاتور متسلط كُرسي حكمه.

بدأ الربيع العربي في تونس، لينتقل سريعاً إلى مصر وليبيا واليمن ومن ثم إلى سوريا، وبعدها بعدة سنوات يستمر الربيع العربي ليصل إلى الجزائر والسودان والعراق ولبنان.

غدت تونس مثالاً يُحتذى به بعد أن ظهرت بوادر نجاح الثورة الشعبية فيها.

وفي سوريا، خرج الشعب إلى الشوارع منددا بظُلم ذلك النظام المتسلط، وسرعات ما انتقل الحراك الشعبي إلى معظم محافظات القطر.

غير أن بشار الأسد لم يتخلّ عن كرسي حكمه، ولم يقابل شعبه بالإصلاح، وإنما قابل تلك الحشود الثائرة بالرصاص الحي.

بسبب ذلك الظلم، والضغط الشديد الذي كان يمارسه بشار الأسد على الشعب السوري، فقد تشكل في كل محافظة من المحافظات السورية مجموعات قامت بتنظيم نفسها تحت مسمى (المعارضة)، وخرجوا بمظاهرات حاشدة عمّت شوارع المدن الرئيسية، إلى أن اضطرهم الأسد (مُرغَمين) إلى حمل السلاح للدفاع عن سلمية مظاهراتهم.

استولى السوريون الثائرون على عدة محافظات ومدن، وقاموا بإنشاء قيادات محلية فيها، لتهتم بتنظيم شؤون الناس.

أما الأسد، وبدل أن يقوم بحركاتٍ إصلاحية، بدأ بإمطار المدن والقرى التي باتت تحت سيطرة المعارضة، بالقنابل والصواريخ والبراميل المتفجرة، مسوياً معظم المدن بالأرض.

استشهد مئات الآلاف من النساء والأطفال والشيوخ والشباب برصاص نظام الأسد الخائن.

مما اضطر الملايين من السوريين إلى تركب بلدهم، ليصبحوا لاجئين في بلدان أخرى.

كادت الثورة السورية أن تنجح في اجتثاث هذا النظام المجرم عدة مرات، واستولت المعارضة السورية على معظم التراب السوري، ولم يبق للأسد سوى مراكز بعض المدن، وأهما دمشق، عندها استنجد الأسد بروسيا وإيران، وقامت هاتان الدولتان بتلبية نداء الأسد، ليقوموا بالركوب على رأس الأسد وتحقيق أطماعهم في البلاد من خلاله.

فبينما كانت روسيا تدعمه من أجل ترويج تجارتها للسلاح، ولأطماع أخرى سياسية واقتصادية وعسكرية في سوريا، كانت إيران تمنحه القوة أسباب طائفية ومذهبية.

لذلك، وبمساعدة كل من إيران وروسيا استعاد الأسد ماء الوجه، وأعاد السيطرة على كثير من المدن والبلدات التي كانت تخضع لسيطرة المعارضة، وقام بعمليات تغيير ديموغرافي وتطهير عرقي للمناطق التي باتت تحت سيطرته، وتدعهم بكل ذلك كل من إيران وروسيا، وبذلك تشبث الأسد بكرسي الحكم، ولم يكن ليتخلى عنه البتة، وقام بتلطيخ كل التراب السوري بدماء السوريين الأبرياء.

في تلك الأثناء، كانت وردة تتابع كلّ ما يجري في بلدها، بعد أن استقرت في مدينة مارع من محافظة حلب، بعد أن توفي زوجها.

كانت مدينة مارع -ذات الستة عشر ألف نسمة- تبعد عن مدينة حلب حوالي خمسة وثلاثين كيلو متراً، وتبعد حوالي خمسة وعشرين كيلو متراً عن الحدود التركية.

وصلت المظاهرات السلمية إلى مدينة مارع، واحتشد الناس في الساحات والشوارع معبّرين عن احتجاجهم ورفضهم لذلك النظام المستبد.

في كل يوم كان الناس يتجمعون في نقاط جديدة، ويكملوا مظاهراتهم السلمية بقلب واحد وجسد واحد.

كانت تمتلئ الساحات بالناس هاتفين بصخب، ترتفع الأيادي في الهواء ليقولوا، وبصوت واحد: "حرية... حرية...".

إلا أن نظام الأسد كان يقصف المتظاهرين جوّا بالطائرات، وبرّاً بالدبابات، حيث كانت القذائف تنزل عليهم كالمطر.

أما القناصون، فقد كانوا يستهدفون المدنيين بلا شفقة ولا رحمة.

قتلوا الملايين من الناس لبث الرعب والخوف بينهم، ودمروا المدارس والمشافي والمدن والبلدات.

بالنسبة لوردة.. فقد عادت الأيام الصعاب لتبدأ من جديد..

أصبح بلدها ساحةً لأحداث غريبةٍ، ذات مصير مجهول.

كانت تخاف كثيراً، لكنها تتغلب على ذلك الخوف باللجوء إلى ربها.

تنهض لأداء صلاة التهجد على وقع أصوات الرصاص، تدعو الله عز وجل أن يحفظ بلدها ويسلم أهلها.

في كل ليلة من تلك الليالي الطوال، تدعو الله أن يحفظ أبناءها، ويحميهم من أي سوء أو أذى، وتُمضي أيامها على تلك الحال.

كانت تشعر بالخوف، وقلبها يرتعد، وكأن مكروهاً ما سوف يحدث.

ففي كل يوم كانت تسمع خبراً جديداً.

مرةً وصلها نبأ مقتل أحد جيرانهم، ومرة أخرى قريب لهم لاقى نفس المصير.. لذلك كانت دائمة الخوف والقلق على أبنائها.

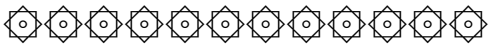

إنه يوم الجمعة...

حلّ المساء.. وخيّم الهدوء على مدينة مارع..

غُلِّقت الستائر، وكأنها نهاية لعبةٍ ما.. وغطى الظلام تلك الليلة.

لكن خوف وردة وقلقها كان يزداد مع مضي الليل..

ففي كل لحظة كانت الطائرات تضيء المكان بالقنابل التي كانت ترميها، لتحيل الليل إلى نهار..

فكل منازل المدينة أهداف مستباحة لتلك الطائرات، التي تنزل على المنازل ممزقةً أجساد أناس أبرياء لا ذنب لهم.

كان الناس في النهار يعيشون كابوساً مختلفاً عن ذلك الذي كانوا يتعرضون له في الليل..

فقد كانت المظاهرات تنتهي مع حلول الظلام، فينسحب الناس إلى منازلهم، ليكملوا ليلهم مع كابوس مخيفٍ كل الخوف.

أتت اللحظة التي كانت تخشاها وردة.. فجأة ارتعدت فرائصها على صوت ضجيج عالٍ.. من الواضح أن الطائرات الحربية قصفت مكاناً ما من مدينتها مجدداً..

لم تستطع الوصول إلى النافذة.. أو أن تقوى الى النهوض حتى..

بقيت في مكانها لمدة طويلة، والقلق مطبق على أنفاسها.. أين سقطت تلك القذائف؟! ومن قتلت يا ترى؟

وبعد قليل نهضت وردة على قدميها، واتجهت نحو الباب مباشرة.

سمعت أصوات صُراخ حين خروجها، كان الازدحام شديد في الشارع القريب من منزل ابنتها..

الجميع كان يركض مسرعاً باتجاه مكان الحادث.. فإذا بها تسرع كذلك إلى ذلك المكان..

كانت تتقدم مسرعةً، وتُتمتِم قائلة: "آه.. ما هذا الذي قد حلّ بنا؟! أناسٌ يموتون.. وأناسٌ أبرياء أصابتها القذائف من جديد".

وصلت إلى ذلك الشارع.. رائحة البارود لا تزال تعجّ في المكان.. والغبار يملأ كل ذرة من المكان..

ازداد خوف وردة، واشتد قلقها كثيراً، عندما كانت ترى الناس يتوجهون إلى منزل ابنتها مباشرة.

يبدو أن منزل ابنتها كان محط تلك القذائف، وأن من خمد نورهم اليوم هم أبناؤها..

كلما كانت تقترب من المنزل، كلما زاد خفقان قلبها، حتى يكاد يخرج من مكانه..

وصلت إلى المنزل.. مشهد جسد نسيبها الممزق على شرفة الباب كاد يفقدها صوابها.. وحلّت الصدمة الذهول مكان الخوف والقلق..

صرخت بأعلى صوتها: "ابنتي...".

في تلك الأثناء تبادر إلى ذهنها أن ابنتها وأحفادها مازالوا تحت الأنقاض..

كان كل من هناك من أناس منهمك في البحث عن الناجين أو الجثث..

تجمع الناس في المكان وكأنه المحشر.. كل شخص بيده شيء ما، فبعضهم يحمل فأساً، والآخر معولاً، وآخرون يحضرون الماء..

الجميع يبحثون تحت الأنقاض علهم يعثرون على ناجين، أو ينتشلون الجثث من تحت ركام المنزل المدمر..

فجأة تقدمت ابنتها باتجاهها باكيةً، وهي تضرب بيديها على ركبتيها، فقد احترق قلبها، ثم اتجهت نحو مكان القصف صارخة: "يا ويلاه".

تسللت إلى قلب وردة نفحة سعادة لنجاة ابنتها، لكن هذه السعادة امتزجت بالحزن بذات الوقت على وفاة نسيبها، لتتقاسم وابنتها القدر ذاته الذي عاشته وردة من قبل.

قدّر الله تعالى لابنة وردة أن تأخذ أولادها جميعاً قبل عدة ساعات من القصف، لزيارة جدتهم (حماتها)، فكان القدر أن تنجو مع أطفالها...

انتهى الرجال من انتشال الجثث من تحت الأنقاض بعد عناء طويل، تم رصفها بجانب بعضها البعض، وكانت جثة نسيب وردة من بينهم أيضاً..

كحال أمها -وردة- أصبحت الآن أرملة.. بلا زوج..

فقد شاء القدر أن تكون أرملة وهي في ريعان شبابها..

سيكون عليها رعاية سبعة أيتام، وبهذا تعيد سيرة أمها التي سبقتها في تجرع مرارة تلك الأيام..

ستكون منذ الآن الأب والأم لسبعة أيتام، كأمها تماماً، حيث أن القدر رسم لها ما لم يكن بالحسبان أبداً.

تحتضن أمها، وتبكي بحرقة، والناس المجتمعون حول الأنقاض يشاهدون حالها تلك، ويقدمون لهن المساعدة، ويلقون اللعنات على كل من كان سبباً في ذلك.

كان الشارع مزدحماً وكأنها ساحة الحشر، فقد تجمع سكان البلدة جميعهم تقريباً، ينتشلون الجثث من تحت الأنقاض، ويقدمون المساعدة للجرحى..

جلست وردة وابنتها -وفاء- في إحدى زوايا الشارع حزينتين، وقد اجتمع حولهن بعض نساء الحي، أما الرجال فكانوا منهمكين في تفقد الأنقاض والبحث عن الناجين وانتشال الجثث..

انتهى البحث تحت الأنقاض بعد عناء استمر لساعات، وبدأ أهالي الضحايا يتسلمون جثامين شهدائهم.

قام بعض الناس بإيصال وردة وابنتها وفاء -مع أبنائها السبعة- إلى منزل وردة، أما الباقي فقد انشغلوا بأعمال الجنازة والدفن..

في اليوم التالي، وبعد صلاة الظهر مباشرةً، تم دفن الشهداء، وصُلّيت عليهم صلاة الجنازة في جامع الفرقان في البلدة.

ما إن انقضت الصلاة حتى امتلأت باحة المسجد بالمصلين، يتزاحمون لإيجاد مكان لهم بين المصلّين.

خرجوا وكانت أيديهم تعلو في الهواء وتهبط، متماوجة مثل أمواج البحر، يهتفون بصوت واحد: "ارحل.. ارحل يا بشار"، "والشهيد حبيب الله.. الشهيد لا يموت".

نُعوشٌ لثمانية شهداء رُصفت بجانب بعضها البعض، في المقدمة، وقد لُفّت بالأغطية الخضراء، كانت تمنح الناس شعوراً بالحزن، وتمدهم بالقوة والروح الواحدة في ذات الوقت.

تقدم إمام المسجد بعد قليل أمام ذلك الحشد من المصلّين حاملاً مكبر صوت في يده..

ساد الهدوء المكان، لم يكن يُسمع سوى صوتُ نحيب النساء ممن جلسن في الزوايا البعيدة.

دعا الإمام للشهداء بالرحمة والمغفرة، وهو يسميهم فرداً فرداً، وما خلفوه وراءهم من أطفال أيتام.

بين الحين والآخر، كان يقطع صوت الإمام هتافات المجتمعين في الميدان بصوت مرتفع: "بشار القاتل، ارحل عن هذا البلد.. سنقاوم ذد الظلم".

كان البعض منهم مشغول بتكرار الهتاف، ومنهم من امتلأت عيناه بالدموع، يمسحها بيديه، والبعض الآخر قد حنى رأسه قليلاً يتفكر بما يحدث، في حين أن بعضهم الآخر عقد حاجبيه يحاول تفسير كل ما يدور في الميدان.

بعد انقضاء الهتافات، والمحادثات الجانبية التي دامت قرابة نصف ساعة، كبّر الإمام تكبيرة الإحرام معناً بدأ صلاة الجنازة.

أنهى الإمام صلاة الجنازة بأربع تكبيرات، ليسلم يُمنةً ويُسرة..

حمل الناس النعوش على أكتافهم عقب انتهاء الصلاة، متجهين إلى المقبرة، وهم في حالة دعاء مستمر لهم طوال الطريق.

أُنزلت النعوش من على الأكتاف بكل احترام وهيبة، ووضعت فوق التراب، فرحين بانتقالهم إلى الحياة الأبدية.

في طريق العودة، اجتمع الناس، وأمسكت بعض النساء بذراعي وفاء يعينوها على السير إلى المنزل، في حين توجه الرجال إلى مكان العزاء..

حيث تم اختيار مكان واحد لتلقي العزاء عن الشهداء الثمانية معا، مثبتين بذلك وحدتهم، ووقوفهم مع بعضهم البعض.

امتلأ المكان بالناس، وعلا صوت القرآن فيه.

بعد انقضاء أيام العزاء الثلاثة تلك، انصرف الناس إلى منازلهم، ليُلملم كل واحدٍ منهم جراحه.

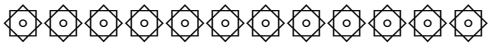

انتقلت وفاء مع أطفالها السبعة للعيش في منزل، وذلك بعد أن فقدت زوجها، مضيفةً ألماً جديداً الى ألم والدتها.

لقد غيّرت الرياح في هذه الدنيا الفانية مجرى حياتهم، فكلّاً من الحزن والسعادة ليسوا بدائمين.

أمّا وردة، وبعد أن رَعَت أربعة أطفالٍ أيتام، عليها الآن أن تعتاد على أن تكون أمّاً لأرملة وجدّة لسبعة أطفال أيتام.

فبينما هي شارفت على التأقلم مع ظروف الحياة بشكل تام، إذ بطريق الآلام والأوجاع يقابلها من جديد.

امتحان الحياة يضع أمام عيني وردة مرّة أخرى أصعب الأسئلة، ليزيد من البياض في شعرها، ويضيف خطوطاً جديدة إلى وجهها.

من الممكن أن يتلاءم الإنسان مع زيادة الآلام، ليتمكّن من الوقوف في وجه الحياة، كذلك هي الحمامة التي طارت من عُشِّ والدتها، وإذ بها تَعُود مجدّداً برفقة صغارها.

فالمهمّة الملقاة على عاتقها الآن هي المطالبة بميراث إنسان صالح.

كانت حياة وردة تعود إلى سابق عهدها مع مضي تلك الأيام..

تسكن ابنتها برفقتها.. يتبادلون همومهم وأحزانهم.. لتملئ وردة الفراغ الموجود بداخلها برفقة أحفادها.

كانت وردة تمنع ابنتها عن الخروج من المنزل في معظم الأوقات، لتدرأ نميمة الناس عن نفسها وعن ابنتها، لذلك كان على عاتقها تأمين جميع حاجيّات المنزل.

كانت تحاول أن تعتاد على تلك الحياة وتتعلّق بها بالرغم من كلّ التوتر والقلق الذي تعيشه.

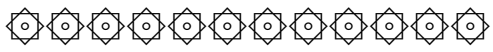

يمضي الوقت سريعاً..

اعتادت وردة -وبكل سهولة- على الصفحة الجديدة الصعبة من كتاب حياتها، وكانت تُحاول العيش بأمل..

مضَت الشهور على تلك الحال..

كانت الأيّام تمضي، ومع كل يوم كانت وردة تَلحَظُ شيخوختها من خلال التغيرات التي كانت تطرأ على جسدها وثِقَل لسانها.

كانت تقِفُ أحياناً لتَترُك كلّ شيء للماضي، لكن سرعان ما تعود لتُكمِل طريقها قائلةً: "إنّني مجبرة على المشي ومتابعة الطريق".

كانت تنسِجُ قصراً من الحروف لتعيش فيه، ممراته من أمن وسلام، جُدرانه من أمل، طلاءه القدر، ونوافذه الاعتياد.

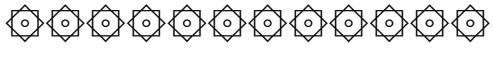

بعد ثلاثة أشهر...

كانت وردة تحاول تضميد جراحها، وبذات الوقت تحارب صعوبات الحياة وأعباءها التي لا ترحم.

ولذلك ومن أجل تأمين لقمةِ عيش أحفادها، عمِلت في تصفيف الشعر وحياكة الملابس والتنظيف وغيرها من الأعمال.

في نهاية المطاف، قامت بكل ما تستطيع القيام به من أجلهم.

أتعَبَها ألمُ السنين، إلّا أنّها لم تنهزم وبقيت واقفةً بشموخ، محاولةً التعلُّق بالحياة مجدّداً.

كانت كثيراً ما تلعب مع أحفادها.. تمازحهم.. تعلّمهم، وتحاول الترفيه عنهم.

كانت تحتضنهم بكلّ حب ورأفةٍ وشفقة، فلم تَقُم بتوبيخهم يوماً لكونهم أيتام.

وفي ذات الوقت كانت تساند ابنتها وتَمنَحُها من وقتها، وتحرص على منعها من الخروج متزيّنة خَشيةً عليها من ألسنة الناس ونَميمَتَهم.

كانت الأشهر تمضي كلمح البصر، تمضي بأيّامها الحلوة والمرّة.

ومازالت الحرب مشتعلةً في تلك البلد -التي تعيش فيها وردة- مع مرور الأيام، وكل يوم تحدث ثورة واضطرابات جديدة.

في كل يوم يَسمَعُ الناس خبراً جديداً عن سقوط قذائف، وتعقبها المذابح، أو خبر وفاة لأشخاص جُدد، وهذا ما كان يُشعِرُ وردة بالذُعر.

فقدت وردة في تلك الحرب حوالي أربعين فرداً من أقربائها، فقد كانت في كل يوم تستيقظ على موتٍ جديد.

كانت أخبار الموت تُسمَعُ كلَّ يوم مِثلَ آذان الصلوات الخمس.

في كُلِّ يومٍ يُلَفُّ أُناسٌ جُدد بالأكفان ويُبَشَّرون بالحياة الأبدية.

وكان خوف وردة وقلقها متعلّقٌ بأبنائها.

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

في أحد الأيام اقتحم عساكر النظام مدينة مارع..

كانت الشوارع ممتلئة بالدبابات وبالعساكر المسلّحة، منتشرين في الشوارع والأحياء والأزقة..

خيَّمَ هدوء الموت على مدينة مارع، تماماً مثل الناس الذين كانوا يقطنوها، وكأنّهم ارتدوا أكفانهم ينتظرون تلك اللحظة التي سيدفنون فيها بصمت.

ظلّت المدينة على تلك الحال لوقت طويل.

وأصبح الموت جزءاً سائداً من تلك الحياة، وكأن وجوده أصبح أمراً معتاداً بين الناس.

فكم هو سريعٌ ابن آدم على التأقلم مع ظروف الحياة.

فمن يدري، لربما تصبح تلك المدينة غير موجودة، وذلك أمر في غاية السهولة بالنسبة لأولئك الظلّام.

فقد أصبح البقاء على قيد الحياة صعباً في هذه المدينة.

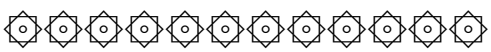

اختبأ الرجال في مغارات خارج المدينة، ولم يبقَ فيها سوى الشيوخ والأطفال والنساء، وانزوى كلُّ من تبقّى في المدينة في منزله.

خيَّمَ هدوء الموت على المنازل، التي بدَت وكأنها تنتظر رصاص العدو الذي سيرتَطِمُ بها.

كانت برودة الصباح قد انتشرت لتوِّها، وبدأ ضوء القمر يَنجَلي، وحان وقت زقزقة العصافير.

بدَأت رياح قوية تَعصِفُ بالجو.

اختبأت الشمس بين الغيوم السوداء، وكأنّ الطبيعة خجِلةٌ من أنّها ستكون شاهدةً على ما سيحدث اليوم.

نهضت وردة من نومها، توضّأت وصلّت ركعتي صلاة الضحى بِتَروٍ شديد.

وقبل أن يمضي وقت طويل، غطّى صوت السلاح سماء مدينة مارع، كان صدى أصوات الأسلحة ودوي الانفجارات في كلّ مكان، والدخان يتصاعد من كلّ مكان.

كان قلق وردة شديداً جداً هذه المرة، وقد سيطر الخوف على كيانها.

لم يتمكن أحدٌ من الخروج من منزله في ذلك اليوم، وقام عساكر النظام بالسيطرة على البيوت القريبة -التي تمّ تحديدها مسبقاً- لكونها على محور خطوط الاشتباك الساخنة.

وبذلك عاد الخوف والموت ليحيط بمدينة مارع مجدّداً.

خيّم المساء على المدينة..

ولم يمضِ سوى نصف ساعة على انقطاع صوت الرصاص وانتشار الهدوء في المكان.

غطى الهدوء أرجاء المدينة فلا يُسمع فيها صوت..

سادَ هدوءٌ غريب في شوارع المدينة، وبدَت وكأنّها خالية تماماً من البشر.

كانت قوّات النظام قد غادرت المدينة وسط دخان القنابل، ليرحلوا مُخلّفين وراءهم أحزاناً كبيرةً، وأحباباً مفقودين، وأطفالاً مشرّدين..

نهضت وردة بهدوء من مكانها واتجهت نحو نافذة المنزل -التي امتلأت واجهتها الخارجية بالغبار من شدة المعركة التي دامت طوال الليل-

انقضى صوت الأسلحة والرصاص في الخارج، ليبدأ صوتُ صُراخ الناس، وعويلهم..

الجميع كان يركض في انحاء المدينة، وبيد كل واحد منهم هاتفاً محمولاً يتحدّثُ به الى أحدٍ ما.

خرجت وردة من المنزل تاركةً بناتها وأحفادها في الداخل، لتتجه نحو الحي الذي يقيم فيه ابنها.

على طول الطريق كانت ترى الأبنية يمنةً ويسرة وقد هُدِّم بعضها، أو قد انتشرت الفتحات على جدران بعضها جرّاء الرصاص.

تراكمت الأنقاض على طول الطريق بسبب استهداف تلك الأبنية، فلم يكن أحد ليستطيع الوصول الى منزله من غير أن يتعثّر.

وصلت وردة أخيراً إلى الشارع الذي يقطن فيه ابنها عباس.

إذ إنها لم تكن تقوى على الانتظار حتى تصل منزل ابنها عباس.

زاد قلقها عندما شاهدت الناس محتشدين أمام باب منزل ابنها، وحينها سيطر الخوف عليها، واشتد وقع الرعب في قلبها.

وإذ بزوجة ابنها عباس وقد أصابتها رصاصات العدو الخائنة واستشهدت..

وبذلك يكون الحزن والألم قد سُجِّلَ في قدرها مرّة أخرى.

أمّا ابنها عباس الذي كان يختبأ في مغارة تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن المدينة، تمكّن من النجاة، إلّا أنّ زوجته لم تنجُ.

كانت قد أصيبت بالرصاص بلا رحمة، وهي ترقد على الأرض مضرجة بدمائها.

استطاع الناس القريبين منهم الوصول الى زوجة عباس قبل وصول وردة، وذلك عقب انقطاع صوت الرصاص مباشرة.

تجمّع الناس حول زوجة ابنها عباس التي كانت ترقد على الأرض مثل وردة موضوعة بين الدماء، وتمكّن الناس من سحبها الى إحدى زوايا الشارع.

أمّا أبناؤها فقد كانوا يقفون بجوار رأس والدتهم ويبكون، وقد أصبحت وجوههم مصفرّة شاحبة قد غطّتها الأتربة الناتجة عن القصف، حتى أصبحوا بحال يصعب التعرف عليهم.

ضَعُفَت وردة مرّةً أخرى، وسقطت على الأرض لا تدري ما الذي يمكنها فعلهُ.

أمّا أحفادها، ما ان رأوها أسرعوا نحوها وبدأوا يحتضنونها ويبكون.

وردة فقدت زوجها أولاً، ثم نسيبها والآن زوجة ابنها.

أحزانها لم تهدأ أبداً، لا بل إنّها تزداد في كلّ يوم أكثر من سابقه.

كان كل من وردة والأطفال يبكون معاً، والخوف والقلق والدهشة وقِلّةُ الحيلة يجوبون المكان.

بعد قليل وصل ابنها عباس، ليكتمِلَ بذلك حزنهم.

كان يبكي وصوته يرتجف، يحاول أن يودع زوجته وفي ذات الوقت يحتضن أبناءه. كانت عيناه تذرفان الدموع حزناً وفرحاً.

فرحاً بنجاة أطفاله وبقائهم على قيد الحياة، وحزنا على وفاة زوجته الشابة.

كان عليه أن يواري زوجته التراب دونما أي تأخير، فالمكان كان ممتلئ برجال الاستخبارات، ويخشى عباس من أن يقوموا باعتقاله.

بعد مضي عدّة ساعات، تم نقل الجنازة الى المسجد بمساعدة بعض الأقارب والجيران.

وهناك قاموا بتغسيل جثمانها، ومن ثمّ كفّنوها، وأدّوا عليها صلاة الجنازة.

خمسة أشخاصٍ من تلك المدينة فقط، كل من تبقى لها ليؤدوا صلاة الجنازة على روحها البريئة.

أقاموا الصلاة سريعاً ثمّ نقلوها إلى المقبرة.

دفنوها بأقصى سرعة ممكنة، ليتّجه بعد ذلك كلٌ إلى منزله كي لا تتم ملاحقتهم.

حتى عباس غادر المكان متَّجهاً إلى المغارة دون أن يمر إلى منزل والدته خشية الاعتقال.

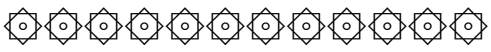

أي قلب يمكن أن يتحمل هذا الحزن.. وهذا الظلم.. وهذا الألم؟
وأي شخص عادل يستطيع أن يغضّ الطرف عن تلك الحياة المشتّتة؟

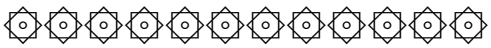

كانت الحياة ظالمة.. وبلا رحمة..

جربت وردة من خلالها كل أنواع الظلم والقهر في الحياة التي تعيشها..

الألم، والحزن، والسلاح، والموت، والوحدة، والجوع، والحرب..

كل ذلك كان جزءاً من حياة وردة، لهذا استطاعت وردة أن تستجمع قواها، وتقف على قدميها مرةً أخرى، عادت إلى بيتها باكيةً مع أحفادها.

بات يعيش في المنزل أحد عشر يتيماً..

أحد عشر يتيماً.. أحد عشر عين بريئة.. أحد عشر جسداً مليئاً بالألم.. أحد عشر قلباً محترقاً.. وأحد عشر فراشة تبكي..

فقدت زوجها.. ومن ثم فقدت زوج ابنتها.. وها هي الآن تفقد زوجة ابنها..

أحد عشر يتيماً.. لم تكن كلمةً سهلة على اللسان..

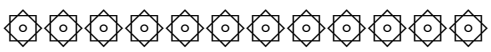

آهٍ عليك يا دنيا.. كم أنت ظالمة، وبلا شفقة!

يموت زوجك، وأبناؤك يعيشون الموت تقريباً، ولكن ليس لديك الوقت لتحتضنهم حتى، وهذا تماماً كان حال عباس.

اختفى عباس ليعش بين الجبال رغماً عنه، حاملاً على كتفيه أوجاعه وقلّة حيلته، وعيناه تمتلئان حزناً.

ظهَرَ بغيابه عن المدينة وكأنه حزينٌ منها، وأنّه قد ألقى بحزنه وألمه وقدره أمانةً بين يدي الجبال.

فقد كان يعلَمُ أنّ مدينته لا تقوى على حمل آلامه وأحزانه..

أسىً، ألمٌ، وحزن..

أما وردة فقد انهزمت، واستنزفت جميع قواها، وأصبحت عديمة الحيلة.

ولم تعد تقوى على تحمّل ما تعيشه من أيّام في الآونة الأخيرة.

كلّ يوم أوجاع جديدة تهزُّ كيانها، لكنّها -وعلى الرغم من ذلك- كانت تحمدُ الله على كلّ شيء، تعلم بسريرة نفسها بأنّ كلّ ما تعيشه هو جزء من قدرها، فتصبر لأجل ذلك.

كانت تحاول تضميد جراحها، وترعى أحد عشر يتيماً في وقت واحد معاً، تطعمهم وتسقيهم وتكسوهم.

تعبت وردة تعباً شديدا..

الآلام فطرت قلبها، وأمسى جسدها بلا قوّة.

العيش في مارع كان يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وأصوات القذائف والقنابل تزداد مع مرور الأيام..

كل يوم حاثة وفاة جديدة، واعتقالات جديدة..

باتت الحياة في مارع لا تحتمل، وأصبح الخوف والقلق والجوع والموت هم اسم المدينة الجديد..

تلك المدينة الحزينة والصامتة..

اسم هذه المدينة نُقِشَ في القلوب وكأنّه قلمٌ حزين..

أجساد كثيرة ووريت التراب في هذه المدينة، وأصبحت تحت الثرى، وصعدت الأرواح إلى بارئها..

لم يبق شارع لم يدخله الألم والحزن، أو باباً لم يقرعه الخوف، أو جسداً لم يشعر بالموت..

كم من الأناشيد والآهات الحزينة أُطلِقت وأَشعَلت قلوبَ الناس حزناً على هذا البلد..

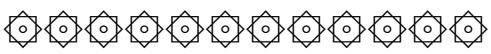

حان وقت الهروب من كل هذا الألم، إلى مكان فيه حياة.. الهجرة إلى بلد آمن.. إلى تركيا..

جهّزت وردة حاجاتها الأساسية (بعض الألبسة) في حقيبة سفر، وأخذت تنتظر الوقت المناسب للذهاب إلى تركيا.

كانت في الآونة الأخيرة يتردد على مسامعها اسم مدينة صغيرة في تركيا تسمّى نيزب، وكثيرٌ من أقربائها كانوا يقولون لها مرّاتٍ عدّة:

"اذهبي إلى نيزب، المسؤولون هناك أناس طيّبون جداً، وإنّ السيد رئيس بلدية نيزب المدعو حاج فوزي دوغان يساعد الأيتام الموجودين في المدينة".

أنهت وردة تحضيراتها، بعد ما سألت من تعرفهم أو لا تعرفهم حتى، عن طريق الوصول إلى نيزب.

باعت خاتم زواج ابنتها لكي تؤمّن المال اللازم من أجل مصروف الطريق.

استيقظت وردة كعادتها قبل شروق الشمس بساعة، وبدأت بتجهيزاتها الأخيرة معلنة الرحيل.

لطالما كانت تستيقظ في تلك الساعة المبكرة، متيقّنةً بأنّ التأخّر بالنوم يضيّع البركة.

على الأغلب كان آخر صباح لها في وطنها الذي كسبت منه تلك العادة الجميلة رغم كل الصعوبات التي عاشتها.

هذا الصباح كان بمثابة آخر وداعٍ لإنسان مجروح لأجل وطنهِ.

ألقت نظرةً داخل المنزل، ثمّ خرجت لتقف أمام الباب.

ألقت نظرةً أخيرةً على مدينتها، وقد كانت في هدوؤها المعهود وقت الشفق.

رياحٌ لطيفة عانقت وجهها، أخفضت رأسها قليلاً وأخذت نفساً عميقاً وكأنّه آخر نفسٍ لها في هذه الحياة.

تحدّثُ نفسها قائلةً: "الوداع يا وطني.. الوداع يا سوريا.. الوداع يا مارع.. الوداع يا مدينتي.. وداعاً للسماء، للأرض، للماء وللهواء".

نظرَت بعينيها الحزينتين، وقالت لصرخات قلبها العميقة: "أنا ذاهبة يا وطني. ذاهبة يا أرض، يا تراب، يا سماء، أنا ذاهبة حاملةً معي همّي وحزني وألمي.

لم يعد لي موطئ قدمٍ في هذا الوطن الكبير.. وكأنني أنا من أضيّق على هذا الوطن الكبير وأسجنه".

"هكذا هي الحياة.."

الحياة بالنسبة لنا مجرد مسرح يبدأ بالولادة وينتهي بالموت.

ونحن نلعب الأدوار التي قدّرها الله تعالى لنا بلا حولٍ منّا ولا قوّة.

فجميع الأدوار بمشيئته، وكل المخلوقات عبيدٌ له.

البدايات والنهايات...

ثمّ قالت: "كل الذكريات السابقة لا يمكن نسيانها إلا عند المرور بأحداث جديدة".

دخلت المنزل بعد ذلك منادية على الجميع: "هيّا.. استيقظوا بسرعة سوف نذهب".

ارتعب الأطفال من صوتها.

استيقظت ابنتها وفاء على الفور، جهّزت الأطفال، وجلست تنتظر من أجل الذهاب.

إحدى حفيدات وردة ذات الستة أعوام، ذكية وخجولة اتّجهت نحو جدّتها غير مدركة ما يحدث وسألتها: "جدّتي، هل ستأخذيننا إلى أبي؟".

عندها حضنت وردة حفيدتها وعيناها تذرفان الدموع..

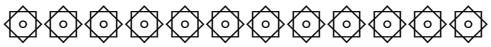

كانت وردة تنظر إلى الطفل الرضيع في حضن ابنتها وفاء، قائلةً: "ضعي بعض المأكولات الخفيفة يا ابنتي، فإرضاع الطفل سيكون صعب في الطريق".

قالت وفاء: "حاضر يا أمّي، سَأُعِدُّ ذلك".

بعد قليل سمعوا صوت همهمة قادماً إليهم من بعيد، من الطرف الآخر من الطريق.

ثمّ اقتربت نحو المنزل سيّارة من نوع "كيّا"، وذلك مع بزوغ ضوء الفجر، وكانت أضواؤها مُطفأة.

توقّفت أمام منزل وردة مباشرةً.

في تلك الأثناء أنهت وردة جميع تحضيراتها، ونظرت إلى زوايا المنزل نظرةً عميقة، ثم مشت إلى باب المنزل، والتفتَت إلى الداخل لتلقي نظرةً أخيرة، ثمّ أغلقت الباب قائلةً: "استودعتك الله".

ربّما لن تعود إلى هذا المنزل لشهور، وربّما لأعوام، وربّما لن تعود أبداً..

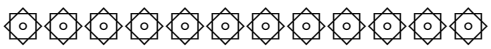

ألقت بعض الأكياس المليئة بالملابس إلى السيّارة، ثمّ أعانت أطفال وفاء بالصعود إلى السيارة.

وجلست وردة وعباس في المقعد الأمامي.

لم يقاوم الأطفال النوم، فما أن انطلقت السيارة حتى ناموا في إحدى زواياها.

عندما شارفوا على الخروج من المدينة، كانت الشمس حينها قد أشرقت على المدينة بأكملها.

كان الجميع قلقاً وحزيناً، ينظرون إلى البيوت والمدارس والجوامع المهدّمة على طول الطريق ويكفكفون دموعهم.

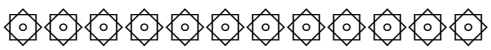

كان هناك سماسرة يساعدون الناس على الهروب من سوريا إلى تركيا لقاء مبلغ من المال.

وكانت إمكانية الوصول إلى تركيا من دون الاتفاق مع أولئك السماسرة أمرٌ صعبٌ للغاية، فقد كانوا يشكلون شبكة تجاريّة كبيرة.

استطاعت وردة عن طريق أحد أصدقاء ابنها عباس، الوصول إلى واحد من أولئك السماسرة، وأخذت منه وعداً بالوصول إلى تركيا مقابل مبلغ محددٍ من المال.

أخيراً تمكّنوا من الوصول إلى القرية التي حدّدها لهم السمسار.

تركهم سائق السيّارة في مدخل القرية، في منزل يقع بجانب الجامع مباشرة، وذهب لأخذ مغادرين جدد.

كان السمسار في الثلاثين من عمره، أسمر اللون، طويل القامة، ذو لحية مصطنعة وجبهة قصيرة.

كان بانتظارهم مختبأً في سيارته في الزاوية اليمينية من الجامع.

حالما شاهدهم، تكلَّمَ بلهجةٍ تُظهر حجم انشغاله قائلاً: "اتبعوني" من دون أن يقول أهلاً وسهلاً حتى.

ثمَّ تقدّم بخطوات سريعة باتجاه المنزل الذي سيمكثون فيه، والذي كان يبعد قرابة خمسين متراً عنهم.

عندما وصلوا، طلب منهم الدخول على الفور.

كان للمنزل باحة صغيرة، وقد هُدِم أحد جدرانها، ذو باب أزرق اللون، مبني من حجارة قديمة.

تجده ما يزال مستقيماً على الرغم من ظروف الحرب تلك.

دخلت وردة ووفاء والأطفال إلى المنزل ذو الغرفتين، حيث كان يوحي شكله بأنّه مُعدٌّ للإقامة، وضعوا أمتعتهم في زاوية إلى يمين النافذة مباشرة.

نظر السمسار إلى ساعته، ثمّ انصرف قائلاً: "لقد تأخرت، يجب عليَّ أن أذهب، وسأعود بعد قليل، وسنعمل على عبور الحدود ليلاً".

حلَّ المساء وزادت برودة الجو.

طغى ظلام الليل على الألوان كلّها، ودُفِنَ كلّ شيء في ذلك الظلام..

كانت السماء ممتدةً بلا نهاية، والنجوم تضيء ذلك الظلام رغم أنف تلك الحرب المؤلمة.

جميع نوافذ القرية كانت مظلمة، وكأن تلك القرية لم يكن يقطنها أحد.

من شدّة خوفهم لم يكونوا ليصدروا أي صوت، وحتّى الشمعة التي قد بقي نصفها لم يجرؤوا على إشعالها.

وفي تلك الاثناء استيقظ الأطفال الذين ناموا من شدة التعب، لتبدأوا بالبكاء بسبب الجوع.

اتجهت وفاء نحو الكيس الموجود في زاوية الغرفة لتُخرِجَ منه رغيفين من الخبز، علّها تُسكِتُ الأطفال بهم.

على أي حال، لم يتبقى لديهم سوى الخبز، ولم يكن هناك أحد ليطرق باب منزلهم.

تناولوا القليل ممّا تبقى من الخبز خشية أن تكون الرحلة طويلة.

تقدّم الليل ولم يَعد السمسار بعد.

تمكّن الخوف من قلب وردة، وبدأت تقلق.

عشرات الأسئلة جالت في رأس وردة..

ماذا لو لم يرجع السمسار؟ ماذا لو تركنا هنا في ظلام الليل؟ ماذا لو كان محتالاً وسرق نقودنا؟

يا الله..

انقضى اليوم وشارف الليل على الانتصاف، والسمسار لم يعد بعد.

ووردة وابنتها وفاء وجميع أبنائها تعبوا وناموا، ولم يفتحوا أعينهم حتى بزوغ شفق صباح اليوم التالي من شدة تعب الطريق.

نهضت وردة من نومها وفركت كلتا عينيها وكأنها تستيقظ من نوم عميق، كان جسدها يؤلمها من جميع أطرافه لأنها نامت فوق أرضية صلبة من الحصير.

نهضت وردة من مكانها من أجل أداء صلاة الصبح، واتجهت إلى الغرفة الأخرى ومن ثم إلى خارج المنزل باحثةً عن الماء، إلّا أنّها لم تجد ماء أبداً.

حيث كان بحوزتهم القليل من ماء الشرب، لذلك جمعت القليل من التراب النظيف من فناء المنزل ورفعت عن ذراعيها قائلةً: "بسم الله، بدأت التيمّم".

فتحت كلتا كفّيها وضمّتهم إلى بعضهم البعض ومن ثم ضربت بشكل خفيف على كومة التراب تلك، لتمسح على وجهها من الأعلى إلى الأسفل بكلتا يديها.

ضربت مرّة أخرى على التراب ماسحةً يدها اليمنى ثم اليسرى، ثم نهضت واتجهت بسرعة نحو الداخل. وقفت باتجاه القبلة وأدت صلاة الصبح.

بعد قليل استيقظت ابنتها وفاء أيضاً، وأدت صلاتها متيمِّمةً بالطريقة ذاتها، ثم عادت للتمدّد في مكانها.

كان خوف وردة وقلقها يزداد، فقد حلّ الصباح والسمسار لم يصل بعد.

في تلك البقعة التي كانوا فيها، قلّما تجد منزلاً، حيث لم يكن سوى طريق واحد يفصل طرفي تلة القرية عن بعضها ويمتد حتى الجامع.

في تلك القرية لم يتبقى سوى ثلاثة، أو خمسة منازل، من أصل قرية كانت تحوي ما بين خمسين إلى ستين عائلة.

فغالبية سكان القرية قد هاجروا، لم يكونوا ليعلموا إن كان ما يزال يعيش فيها أحد أم لا، فمنذ الأمس لم يقرع أحد بابهم.

حلّ وقت الظهيرة، وتوسطت الشمس السماء وزاد حرّها، أما وردة فكانت تنتظر السمسار بلا أي حيلة، لكنه لم يأت أيضاً.

من الواضح أن السمسار قد استغلهم ولن يعود مجدداً، أو حصل له مكروه ما.

في تلك الحال، فإن المال الذي أعطته إياه قد ضاع سدى، والأمل الذي كانت تنتظره من السمسار قد انقطع، وحق اليتامى الذي كسبته بعرق جبينها من الحياكة استولى عليه المحتالون.

كان على وردة أن تجد لها طريقاً آخر، فإمّا أن تأخذ ابنتها وجميع أحفادها وتتجاوز الحدود بمفردها، أو أن تجد سمساراً آخر وتضع بين يديه أرواح ثلاثة عشر شخصاً.

بقيت وردة في ذلك المنزل يومين كاملين لم تخرج منه أبداً..

صلّت وردة صلاة الظهر، ثمّ ارتدت عباءتها المطرّزة وذات الأكمام الملّونة، وتوجهت نحو منزل مَبنيٍّ من حجرٍ قديم، يبعد حوالي ثلاثين متراً عن المنزل الذي كانت تقطن فيه، وصلت المنزل ثم طرقت بابه الحديدي ذي اللون الأسود.

لم يكن في المنزل أحد من الرجال، حيث فتحت لها الباب امرأة سمراء، ذات جسم ممتلئ قليلاً، في الخمسين من عمرها، وقالت لها تفضّلي.

وردة وبصوت خجول ومرتبك قالت: "نحن نقيم في ذلك المنزل الذي في أعلى التلّة وبالقرب من الجامع"، ومن ثمّ قصّت عليها حكايتها مع ذلك السمسار من بدايتها إلى نهايتها.

أدخلت تلك السيدة وردة إلى داخل المنزل وأكرمتها، ومن ثمّ أعطتها بعض المأكولات وودّعتها.

لم تتمكن وردة من إيجاد طريق للخروج من القرية، لكنّها وبمساعدة أهالي القرية استطاعت إيجاد سمسار آخر، وبذلك وصلت إلى قرية أخرى.

أمضت وردة بتلك القرية عشرة أيام صعبة وشاقة، إلا أنها لم تتمكّن أيضاً من عبور الحدود.

وبعد انتظار طويل واجهت فيه وردة صعاباً كثيرة، استطاعت أن تعبر الحدود إلى تركيا.

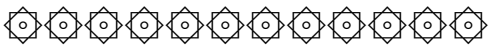

تركيا

عاش الناس في سوريا ظروفاً إنسانيةً صعبة أشبه بالخيال، وتأثرت بتلك الظروف تركيا عامةً، والولايات القريبة من الحدود على وجه الخصوص.

مع بداية الربيع العربي، تحوّلت الحرب الداخلية في سوريا إلى أزمة، إلّا أنّ تلك الأزمة لم تكتفِ بسوريا فقط، وإنما امتدّ تأثيرها على المستويين العربي والعالمي معاً.

طالب الشعب السوري باستقالة الحكومة، ونيل الحرية، والعدالة في توزيع واردات الدولة على كافة أبناء الشعب، وغيرها من الحقوق، إلّا أنّ الأسد لم يُعِر بالاً لتلك المطالب أو الحقوق المُحِقّة، وإنّما واجه الشعب بالنار وأعلن عليهم الحرب.

ونتيجةً لذلك، فقد تشكّلت مجموعات من المعارضين من الشعب وطالبت بحقوقها المسروقة، وأصبحت ضد الظلم واضطهاد النظام.

ومع مضي الأيام كان اضطهاد النظام وقسوته تزداد، فقد استخدم الأسلحة الكيميائية وسوّى معظم المدن بالأرض.

أما الشعب، فكانوا في كل يوم يشكّلون مجموعات مسلَّحة جديدة، كانت تناضل وتقاتل من أجل إخراج النظام من المدن التي يسيطر عليها.

في البداية استطاعت تلك المجموعات الحصول على مساحات كبيرة من المدن السورية، بينما أُجبروا في مراحل متقدّمة على ترك معظمها مجدداً لصالح النظام.

وبالرغم من مضي ست سنوات على الأزمة السورية (2017)، إلا أنّه لم يتم التوصّل إلى حل جذري لها.

ومع كل يوم يَمُر، يزداد الأمر سوءاً ويصبح إيجاد حل شبه مستحيل.

كانت تركيا المعقّب الأكبر لتلك الأزمة، حيث نادت الحكومة التركية وبصوت عالٍ نحو الإصلاحات، إلّا أنّ تلك النداءات لم تَلقَ آذاناً صاغية من قبل نظام الأسد.

قدّمت جامعة الدول العربية لنظام الأسد مقترحاتٍ عدّة وفقاً لقرارات وتوصيات الأمم المتحدة، إلّا أنّها لم تؤدي إلى أي حل للأزمة.

إن تداعيات تلك الأزمة أكثر ما ظهرت على تركيا، حيث أنها كانت سبباً لهجرة حوالي ثلاثة ملايين إنسان إلى لتركيا، ومع ذلك فإنّ تركيا لم تغلق أبوابها في وجه من تركوا بلادهم بسبب تلك الحرب، وإنّما طبّقت سياسة الأبواب المفتوحة أمام كل من طرق بابها.

إذ إنّ حوالي ثلاثة ملايين إنسان توزعوا تقريباً على جميع الولايات والمقاطعات والمدن التركية، وجزء كبير منهم استقر في مخيمات اللجوء التي أنشئت وفقاً للمقاييس والمعايير الدولية.

أعطت تركيا درساً في الإنسانية لجميع دول العالم، من خلال اهتمامها بتلك المخيمات، فقد صمّمت المخيمات وفق برامج وخطط لم يُرى لها مثيل في العالم، ووفرت من خلالها جواً منزلياً لمئات الآلاف من الناس الذين أُجبروا عنوةً على مغادرة بلادهم وترك منازلهم.

ومن يستطيع أن يقوم بذلك إلا من لديه تاريخ حافل وقديم يعود لآلاف السنين كتركيا.

استضافت تركيا قرابة ثلاثة ملايين لاجئ سوري، ووفرت لهم جميع الإمكانيات المطلوبة، حيث قدّمت لهم الخدمات الصحية والتعليمية دون أي مقابل.

ويحصل المهاجرون السوريين على جميع الحقوق التي يحصل عليها أقرانهم من الأتراك، حيث أنّ بإمكانهم ترخيص شركات ومحال تجارية، كما وبإمكانهم أن يحصلوا على تراخيص تمكنهم العمل بمختلف القطاعات، بالإضافة إلى إمكانية الدراسة في الجامعات التركية كغيرهم من الطلاب الأتراك.

أما وردة وبعد رحلة شاقة وصعبة، تمكّنت من الوصول إلى مدينة كلّس، حيث نزلت ضيفةً في منزل لأحد أقرباءها الذين يقيمون هناك.

وبعد مضي عدة أشهر من بقائها عندهم، جمعت أحفادها وتوجهت إلى أقرباء لها في ولاية كهرمان مرعش، لكنها وعندما لم تجد أي فرصة للعيش هناك، اتجهت أخيراً إلى مدينة نيزب..

نيزب هي واحدة من أكثر المدن التركية كثافةً من حيث عدد المهاجرين السوريين، حيث أنّها تستضيف قرابة خمسةٍ وأربعين ألفاً من اللاجئين السورين، وإنّ إداراتها كانوا ولا يزالون يقدمون لهم الخدمات الأساسية بشكل يتوافق مع ما يقدمونه للمحتاجين من الأتراك كنوع من الأخوّة والتعاضد.

إذ كان لأولئك الأساتذة الإداريين مساهمة كبيرة في العيش الآمن للاجئين السوريين ضمن تلك المدينة الصغيرة دون مشاكل.

في هذه المدينة قدم كلٌ من قائم المقام ورئيس البلدية والمفتي ومدير التربية والتعليم ومدراء المديريات الأخرى مجهوداً كبيراً جداً لأجل ذلك.

كان من بين هؤلاء قائم مقام المدينة السيد يشار كارادينيز، ذو وجه نحيل ومظهر أنيق، حنطي البشرة، يمتلك صحة جيدة وقامة قصيرة، في الخمسين من عمره، له نظرة ثاقبة وقامة شامخة.

حمل كافة المهام الملقاة على عاتقه بصدرٍ رحب وبتحمّلٍ كامل للمسؤولية.

على الرغم من تقدمه بالعمر، إلا أن شعر رأسه وشاربيه كانوا لا يزالون شديدي السواد، وكانت النظّارات الرقيقة تتلاءم مع مظهر وجهه، وتظهر غمزات خفيفة على وجهه عندما يضحك.

تزامن وجوده في منصب القائم مقام مع بدء توافد اللاجئين إلى الحدود مع تركيا في العام 2011.

كان يتابع بنفسه أمور اللاجئين السورين الذين سكنوا مدينة نيزب فرداً فرداً، ويظهر اهتمامه الخاص بهم، قائلاً بأنهم ضيوف الله.

حيث كان ذلك المدير النبيل يعمل بكامل قواه، يَصِل ليلهُ بنهاره من أجل أمان المهاجرين السورين، فعلى على الرغم من مضي تلك السنين إلّا أنّه لم يُنسى إلى الآن.

في تلك الفترة كانت المساكن المدرسية والمؤسسات الاجتماعية والصالات الرياضية المغلقة قد امتلأت باللاجئين السوريين.

وتجاوزت الحكومة التركية جميع الإجراءات البيروقراطية من أجل أن تخفف المعاناة عن السوريين وتسهِّلَ نقلهم إلى ولايات أخرى.

فبمساعداتها تلك أنقذت عشرات آلاف من المهاجرين من العيش بالشوارع، حيث أن المسؤولين عملوا ليلاً ونهاراً من أجل إتمام إنشاء المخيمات، لتُصبِحَ جاهزةً للإقامة بعد مدة قصيرة لم تتعدّى الثلاثة أشهر.

كانت أولى أيّام المخيم، واللاجئين كانوا قد استقرّوا في المخيمات لتوِّهم.

إنّها الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل تقريباً.

برودة شهر حزيران بدت وكأنّها تداعب وجوه الناس، وتضفي على وجوههم نظرة التفاؤل والارتياح، روعة القمر في السماء كانت تعطي القليل من الأمل لأولئك اللاجئين.

كانت تلك الخيم التي أُنشأت مؤخراً أشبه بالحمامات البيضاء، في حين أن الكهرباء لم تصل إلى المخيم بعد.

الموظفون القائمون على خدمة المخيم كانوا يوزّعون الأسرّة والأغطية وغيرها من الحاجيات الضرورية على اللاجئين السوريين.

تحت ذلك الظلام من الليل لمع من بعيد ضوءان في وجه العاملين، ومن ثمّ بدأ يقتربُ مصدر الضوء شيئاً فشيئاً ويزداد مع اقترابه اندهاش العاملين هناك، ويعود اندهاشهم لعدم توقّعهم بقدوم أي وفود أو زوار للمخيم.

وإذ بسيارة تقف أمام العمال مباشرةً، كانت فضية اللون ذات لوحة تعريفية حمراء توحي بأنها وسيلة نقل حكومية رسمية، وإذ بالقائم مقام السيد يشار كارادينيز ينزل من تلك السيارة.

وبعد أن عرّف عن نفسه، بدأ يتحدّث إلى العمال ليعرف أين وصلوا في مرحلة التنفيذ، ثم رفع عن ذراعيه وأخذ يساعدهم بإنجاز العمل.

وبعد قليل قاطَعَ حديث المتكلّمين قائلاً: "خذوا تلك السيارة إلى الأمام قليلاً، ثم وجّهوا أضواءها إلى المكان الذي سنعمل به".

ثم التفت إلى الموظفين قائلاً: "أعطوني لائحة التوزيع، وسأقوم أنا بقراءة الأسماء وأنتم من سيقدّم الحاجيات إلى الأسماء التي سأنادي عليها".

بدأ السيد قائم مقام بقراءة كل اسم على حدة، والموظفون بدورهم يوزعون لهم الأدوات والمستلزمات، واستمر العمل على تلك الحال حتى الصباح.

كان القائم مقام السيد يشار كارادينيز يصل ليله بنهاره ليتابع عن قرب وصول جميع الخدمات إلى الاخوة اللاجئين من داخل وخارج المخيم.

ثم قام بتعيين السيد مدير التربية والتعليم في نيزب السيد جانكيز كونديش مديراً لذلك المخيم، وبذلك يكون قد سلّم اللاجئين لأيدٍ أمينة.

جانكيز كونديش كان دائري الوجه ذو جبهة عالية وحواجب غليظة، وصاحب هيبة، وكان يضع نظارات ذات إطار أسود، تضفي بعض الظرافة على وجهه، ولم تكن البسمة تفارق وجهه أبداً، وعندما يضحك تظهر له غمازة خفيفة على خدّيه.

أتعبته الحياة، لذلك كان يبدو أكبر سنّاً على الرغم من أنه في الخامس والأربعين من عمره.

نادراً ما كان يغضب، لكنه عند الغضب يصبح وجهه شديد الحمرة.

يكره الكذب ويسعى دائماً إلى تقويم الاعوجاج، وتصحيح الأخطاء التي كان يَلحَظها، يعطي أهمية كبيرة للصدق والصادقين، ويشجع مَن حولَه على ذلك.

كان يتكلم رويداً رويدا ويتخلل حديثه بعض الكلمات التعبيرية التي توحي إلى براعته في التعبير.

كان إدارياً ومعلّماً ناجحاً، يُظهِرُ الأهمّية لكل من يقابله، صغيراً كان أم كبيراً، يعرفه أولا يعرفه، يتحدث بلطف ولباقة مع الجميع.

تولّى منصب إدارة المخيم الذي أنشأه السيد قام المقام، وسهِرَ الليالي ليصبح ذلك المخيم جاهزاً للسكن.

أصبحت إدارة المخيّم بكلا شقَّيه مرميّةً على عاتقه، بالإضافة إلى عمله بقطاع التربية والتعليم في مدينة نيزب.

أدارَ وبمهارة جميع الأعمال بالمخيم من صحة وإنشاءات وأدب وتعليم، وبذل الجهد الكثير ليصبح المخيم بكلا شِقَّيه مطابقاً للمعاير الدولية.

كان دائماً ما يغادر المخيم مع أذان الفجر محدّثاً نفسَهُ بعدم تأجيل الأعمال للغد.

كان معلّماً ماهراً وإداريّاً استثنائيا، برعَ في التخلص من القشور والبحث في جوهر الأشياء.

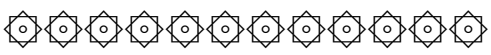

وصلت وردة إلى مبنى البلدية، الذي كان عبارة عن بناء كبير بعض الشيء، مؤلف من خمس طبقات.

قابلهم موظف البلدية، الذي كان يُدعى حقان آفجي، حيث سمح لهم بالإقامة بالطابق الثاني من المبنى.

كان حقان آفجي يفضّل الناس على نفسه، ويحب عمل الخير كثيراً، كان رجلاً هادئاً، يكره ارتداء الملابس المبتذلة، ويُسَرُّ عند ارتداء الملابس العادية لشدّة تواضعه.

كان يخرج كيس التبغ من جيبه وتلحظ في عينيه نظرات عميقة وهو يلفّ السجائر خاصته.

وبالنهاية أصبحت وردة وأحد عشر يتيماً تحت حماية ورعاية الحاج فوزي أكدوغان الذي لطالما سمعت باسمه ولم تراه.

حينها، وبعد مضي مدة من الزمن بدأت وردة تشعر بالأمان من جديد.

كان الحاج فوزي أكدوغان في الخمسين من عمره، رجلاً خفيف السمار ممتلئ الجسد، عريض الكتفين، ذو هامة شامخة، متوسط الطول، وشارب عريض، ووجه مدوّر، وذو شعر أشيب بعض الشي، كثافة شعره توحي بأنه أكثر شباباً.

كانت عيناه السوداوان تنسجم مع نظارته البيضاويّة، وجهه يميل للابتسامة، محنّك قادر على الإقناع في خطاباته.

كان يدخن السجائر كثيراً حتى امتلئ كامل جسده بالدخان، إذ إنّه لم يكن يستخدم الولّاعة مطلقاً لأنّ سجائره كانت لا تنطفئ، فيصل واحدة بالأخرى.

ولد في نيزب وأنهى دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية فيها، تخرّج من كلية العلوم الإدارية والاقتصاد من جامعة أولو داغ في مدينة بورصا.

كان طفلاً لعائلة تعمل بالتجارة ذات دخل متوسط، أثناء عمله بالتجارة قفز إلى حضن السياسة، تولى رئاسة بلدية نيزب لثلاث دورات متتالية، دون كلل أو ملل، وأصدر خلالها العديد من القرارات.

حاج فوزي أكدوغان كان صاحب شخصية قيادية يتحدث بلهجة أهل نيزب، وهو جسور وشجاع ومقدام.

اشتُهِرَ بصدقه في المنطقة، وكسبه المال الحلال من خلال عمله في التجارة، حيث لم يكن يغلق بابه في وجه أحد قَط.

فقد ورِث عن أجداده أماكن استراحة للمسافرين على طريق الحرير التاريخي تعود لسنين طويلة، وكما كان لديه معمل لإنتاج الزيوت أيضاً، وتعرّف هناك على شخص مُسن من أهل الله معروف باسم دادا أفندي.

كان حاج فوزي عندما يشعر بالتعب جراء مصاعب الحياة وهمومها التي لا تنتهي، يرمي نفسه بين أحضان دادا أفندي ويصغي إليه بأدب.

كان يشعر بالارتياح كثيراً أثناء استماعه إلى دادا أفندي، ويحفظ كلّ ما يسمعه عن ظهر قلب.

حيث أصبح بالنسبة له المرشد والموجه.

دادا أفندي كان شخصاً صادقاً قريباً من الجميع دونما أي تمييز، لا يخجل من أحد وواضح في كلامه، يُعلّم الناس الحكمة ويرعى ذوي المذهب الصوفي حق رعاية.

يحرص دائماً على مد يد العون لكل من يطرق بابه الذي لطالما لم يرتبط لا بجماعة ولا بحزب.

كان السيد حاج فوزي أكدوغان يعمل في التجارة ويزور دادا أفندي باستمرار.

وبعد أعوام عِدّة، بدأ الحاج فوزي يُحَدِّثُ بما تعلّمه منه ويروي المقتبسات التي لطالما حفظها عن ذلك الرجل.

توفيَّ دادا أفندي، وشاءت الأقدار أن يصبح الحاج فوزي رئيساً لبلدية مدينة نيزب، ترأّس بلدية المدينة لثلاث دورات متتالية، حيث أصبح له مكانة طيبة في قلوب الجميع.

حمى الآلاف من الناس وكان عوناً لمن لا عون له.

أنجز العديد من الأعمال الخيرية، وعمل بجديّة من أجل خدمة ونجاح تلك الأعمال.

في إحدى احتفالات المدينة التي ضمن العديد من المواطنين، وفي ختام ذلك الحفل، تناول السيد حاج فوزي مكبر الصوت بيده اليمنى، ثم حنى رأسه للأسفل قليلاً بكل تواضع، لوجِّه كلمته للحضور:

"إخوتي، جميعنا عابري سبيل في هذه الدنيا، لذلك لا تثقوا لا بأموالكم ولا بقوّتكم ولا في مناصبكم حتى، والله على ما أقول شهيد.

لذلك كل من يرى أخطائي ولم يعلمني بها، فإن ذنبي سيبقى في عنقه إلى يوم القيامة.

وإنّ كل الأرامل والأيتام والمساكين الموجودين في مدينة نيزب هم أمانة في عنقي إن شاء الله".

ثم أتمّ حديثه مستشهداً ببعض من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

وبنهاية حديثه التمّ الناس من حوله راجين منه تحقيق رغباتهم. ومن جهته قام السيد حاج فوزي بتدوين جميع طلباتهم، ومن ثم أعطى تعليماته بتنفيذ تلك الطلبات، ليغادر بعد ذلك قاعة الاحتفال.

كان كثيراً ما ينفق أمواله في أعمال الخير، وعندما يسأله أحد ما يجيب قائلاً: "الحمد لله، أقولها وأفتخر بذلك: الجميع يجني المال من السياسة، أمّا انا فقدت أموالي في السياسة، ولست نادماً على ذلك ابداً، أنفقت ثروتي كلها على الفقراء، وإن عاد بي الزمن، لسوف أنفقه مرّة أخرى".

ثم ينهي حديثه متبسِّماً وقد أولع سيجارته.

كان يرعى آلاف الأيتام ويتكفّل بمصاريفهم من ماله الخاص.

وكما أنّه تكفّل باحتياجات اللاجئين الذين قدموا إلى مدينة نيزب جراء الحرب في سوريا، حيث كان يؤويهم في أماكن تابعة لبلدية المدينة، فقد تم إسكان اللاجئين في جميع الأماكن العامة المناسبة من صالات رياضية ومصانع وأبنية تابعة للبلدية، وتكفّل بكامل الاحتياجات.

كان يشرف على معالجة المرضى من الفقراء والمجاهدين ويعيّن لهم مترجمين ومرافقين خاصين.

وعلى الرغم من كل الانتقادات، إلّا أنّه كان يستأجر المنازل للجرحى ويهتم بهم سرّاً.

حيث كان يلبي احتياجات قرابة خمسين جريحاً من المجاهدين، ويضع ما يلزمهم من أموال في جيوبهم، ويرسل المعاقين بدنياً إلى مشافي خاصة في مدينة اسطنبول حتى يتلقوا العلاج.

ذلك الرجل بإخلاصه وتفانيه بالعمل كان مثالاً يُحتذى للكثير من الشباب، حيث أمضى معظم حياته في أعمال الخير وكان سياسيّاً خارجاً عن المألوف.

يصاحب العلماء والشيوخ ويزور مجالس الفقراء.

سيطرت محبّته على الجزء الأكبر من قلوب الناس، وكان له نصيب من أدعيتهم لقاء إخلاصه وتفانيه وأخلاقه النبيلة.

ذلك السياسي الشهم كان يقف إلى جانب كل من يحتاجه ويحل مشاكل جميع الناس بغض النظر عن دينهم او لغتهم أو بلدهم أو انتمائهم العرقي.

إنّه شهر تموز من العام 2012، حيث الحر في مدينة نيزب يجعل الإنسان يغرق في عرقه من أعلاه لأسفله.

والمهاجرون السوريون يتوافدون إلى مدينة نيزب أفواجاً أفواجاً، والموظفون الذين قام رئيس البلدية بتعيينهم كانوا ينظمون الناس في الأماكن الفارغة من سوق الفستق، حيث يتجمع المهاجرون.

وعلى الرغم من قلّة حيلتهم وحالتهم النفسيّة المتأثرة بتلك الحرب، إلا أنّ المجادلات والمشادات الكلامية بدأت تنتشر من شخص لآخر بين ذلك الازدحام، لتعم الفوضى في ذلك المكان.

حينها قام كل من قائم المقام السيد يشار كارادينيز ورئيس البلدية الحاج فوزي بالتوجه فوراً نحو ذلك المكان، وعملوا على التخفيف من حدّة الازدحام.

تجمهَر الناس وقد علا وجهوهَم الغضب والاستياء، وبدأت أيديهم تعلوا بالهواء مصدرين أصواتاً تعبر عن استيائهم.

بعد ذلك لاحظ جميع الموجودين ضمن ذلك الازدحام قدوم رئيس البلدية، فسادَ الهدوء فجأة في ذلك المكان، وإذ برئيس البلدية يقطع ذلك الازدحام ويتقدم نحو منتصف التجمع.

وعندما وصل إلى وسط تجمع الناس، رفع كلتا يديه مشيراً إلى الحاضرين بالجلوس على الأرض.

هدأ الجميع وانحنوا قاصدين الجلوس على الأرض باحترام.

مع تقدّم الوقت ازدادت حرارة الشمس وزاد تأثر الناس بحدّتها، وبدأ البعض بوضع أيديهم فوق رؤوسهم متوخّين ذلك شدة الحر.

انتظر رئيس البلدية حتى جلس الجميع، ثمّ أشار بأصبعيه قائلاً:

"إخوتي، أنتم حقّاً مهاجرون حقيقيون، ومكانكم فوق رؤوسنا، وعاهدنا الله على استضافتكم وتقديم كل الإمكانيات التي نقدر عليها من أجلكم".

ثم استشهد بقصة أهل الكهف كمثال لأولئك الناس.

إذ إنّ الحاج فوزي مشهود له بطلاقة السان، محنّك، مؤثِّر في خطاباته أمام الناس، ويُوصِل فكرته على النحو المطلوب، حيث الجميع يصغي بانتباه.

ثمّ أكمل حديثه قائلاً:

"إخوتي، أعتقد أنّ جميعكم يعرفون قصّة أصحاب الكهف، حيث اختبأ سبعة من المسلمين مع كلبهم في مغارة هرباً من حاكمهم الظالم".

ثمّ أكرمه صاحب مطعم مجاور لذلك التجمع بكأس من الماء، شرب منه القليل ثمّ تابع حديثه:

"أنتم أيضاً هربتم من رئيس ظالم ولجأتم إلى بلادنا، أمّا نحن فلم نستطع أن نكون أنصاراً ولم نؤدي واجبات الأنصار.

لكن غايتنا أن نكون مثل كلب أصحاب الكهف "قطمير" أصدقاء دربٍ لكم، حتى تكون لنا قيمة عند الله مثلما كان له".

ثم مسح عرق جبينه بيده اليسرى.

حزِنَ كل من كان في هذا الحشد، فقد كانوا فخورين بأنّهم تعرّفوا على هكذا شخص.

وفجأة عَلَت هتافات الناس مردّدين "تركيا وسوريا واحد".

تريّث رئيس البلدية قليلاً حتى يهدأ الناس، ثمّ أكمل خطابه قائلاً:

"إن كلاً من رئيس جمهوريتنا السيد رجب طيب أردوغان والمسؤولين في الدولة وجميع مواطنينا الأتراك فتحوا أبوابهم وقلوبهم لأخوتنا المهاجرين السوريين.

أنتم إخوتنا وضيوف شرف بالنسبة لنا، وأرواحكم وأموالكم هي أمانة في أعناقنا من الآن فصاعداً"، وأنهى بذلك حديثه.

تعالت أصوات الناس مرّة أخرى هاتفين باسم رئيس البلدية، ثمّ غادر الناس مكان التجمع يتهامسون فيما بينهم.

كان رئيس البلدية وإلى جانب أعماله الروتينية يقوم بتضميد جراح المهاجرين الذين تركوا بلدهم بسبب الحرب في سوريا، التي تجاوزت سنواتها الست.

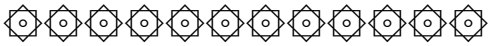

كانت وردة تقيم في المنزل الذي قدّمه لها رئيس البلدية بلا أي أجر، لتكمل حياتها وأيامها القادمة تحت حماية السيد حاج فوزي.

وكانت دائماً ما تلخص أيامها تلك قائلة:

"استقرينا أخيراً أنا وابنتي وأحفادي في منزل يقع في الطابق الثاني من البناء الذي قدّمه لنا السيد رئيس البلدية.

كانت تلك الأيام هي الأكثر راحة من بين تلك الأيام التي عشتها.

المسؤولون الذين لم نتمكن حتى من رؤية أشكالهم في سوريا، هاهم يوزوننا في منازلنا ويستمعون إلى همومنا ويهتمّون لأمرنا.

كانت زيارة رئيس البلدية لنا في منزلنا شيئاً خارجاً عن المألوف.

إذ إنه كثيرا ما كان يوصل بيده احتياجاتنا، ويعطي الأيتام مصروفهم، ويتكفل بكل احتياجات المنزل.

لم أسمع أو أرى في حياتي رجلا قيادياً مثله، ليرضى الله عنه".

ثمّ عدّلت من جلستها الغير مريحة وأكملت حديثها:

"لم أُرد أن أكون عبأً على أحد، لذلك لم أستطع البقاء في مدينة كلس أو مرعش عند أقربائنا، واستقريت في مدينة نيزب.

ولم أُرد أن أكون عبئاً على رئيس البلدية أيضاً، لذلك بحثت كثيراً عن طرق للوصول إلى المخيم".

هذه المرأة الصادقة أعطت درساً للأمة الإسلامية بوقفتها تلك.

فعلى الرغم من ضعفها ووجود ابنتها الأرملة وأحد عشر يتيماً في حياتها، إلا أنّها كانت تصارع بمفردها أمواج الحياة العاتية.

كانت تسعى جاهدة بأن تبقى واقفة على قدميها غير منكسرة بالرغم من الحياة المنكوبة التي عاشتها، والتي لا تتسع الأرض كلها لمثلها، واستطاعت أن تجتاز اختبارات الحياة بنجاح.

الكثير من الناس تراهم حريصين يحبّون المال، ويَسعَدون بوجود المظاهر والشهرة، إلا أنّ تلك المرأة المتواضعة داست على الشهرة بقدميها، باحثةً عن حياة متواضعة.

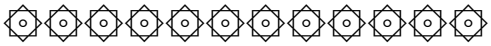

تمكّنت من الوصول إلى إدارة المخيم عن طريق صديق تعرِفه مسبقاً، والذي تحدّث كثيراً عن الصعوبات التي واجهتها تلك المرأة الصامدة.

استأذن وبخجل شديد، ذلك الرجل، بأن تقيم تلك المرأة الصبورة في المخيم.

وصل خبر تلك المرأة إلى مدير المخيم السيد خليل قندرجي، والذي بدوره بدأ بإجراءات دخول تلك المرأة إلى المخيم.

كان السيد خليل قندرجي إدارياً بارعاً، ومحترماً من قِبَل الجميع.

ممتلأً جسده بعض الشي، ذو شعر وعينان سوداوين، متوسط القامة ورجل حكيم بكل ما تعنيه الكلمة.

كان محط إعجاب الكثير بفراسته وذكاءه.

إنسان جدّي، يتحدّث بعبارات موزونة تَصِفُ جدّيته تلك.

يُتِمُّ عمله على أكمل وجه دونما شك أو ريبة.

حسن المظهر، وقلّما تجده بملابس غير أنيقة.

كان يرتدي حذاءً أسودَ اللون بأرضية ملساء، يخلق من خلاله تناغماً جميلاً مع حِزامه الجلدي ذو اللون الأسود، المحيط بخصره، فيكتسب بذلك حُلّةً جميلة تضفي على جمال مظهره العام.

قام السيد خليل قندرجي بترتيب جميع التراخيص اللازمة من أجل استقرار وردة في المخيم. وأنهى جميع التحضيرات من أجل انتقالها إلى هناك.

وقام مسؤولو المخيم بتعيين السيد اوكتاي التن باش كموظف إداري في المخيم، وأوكلوا إليه مهمة نقل وردة من سكن البلدية التي كانت تقيم فيه إلى المخيم.

وبعد ذلك بمدّة قصيرة جداً، استقرت وردة بالمخيم وأكلمت بقية أيامها هناك.

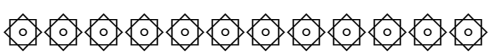

حرب سوريا..

الحرب أخذت كلَّ شيء من الناس..
احرقت مالهم وأرواحهم ووطنهم بلا رحمة ليصبحوا رماداً..

الكثير من الناس فارقوا الحياة، وبقي العديد منهم أيتاماً ومعاقين وجرحى وبلا مأوى..

استحوذت تلك الحرب على كل ما كان بين أيدي الناس..

سلبَت منهم أحبّاءهم وعائلاتهم، وأفقَدَتهم الأمان والشرف والرجولة والأمل.

ليبقى جميع أولئك الناس بلا طعام ولا شراب، بعيدين عن منازلهم ووطنهم، ليغدوا لاجئين ومهاجرين وغرباء مبعدين عن وطنهم.

يبكي بعضهم أحياناً، دون أن يُسمَع صوتهم..

يصرخ بعضهم الآخر، لكن لا يجد من يصغي لصراخه، أو أن يمدَّ أحد يد العون لهم..

لم تأخذ الحرب أبدان الناس فقط، وإنمّا سلبتهم ثقافتهم وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم، ودمَّرت مشاعرهم وضميرهم.

هذه هي الحرب، تُبكي وتؤلم وتجرح وتجعلنا أكثر اشتياقاً..

إنّ الحرب تُلبِس الناس ثوب الحزن على أبدانهم أحياناً، وأحياناً أخرى تلبسهم ثوب الألم والكره والخوف..

الحرب تأخذ العشق من قلوب البشر لتلقي به بعيداً..

الحرب قادرة على أن تجمع بين الحب والكراهية في ذات القلب..

الحرب هي تسوّل، هي فقر، هي وحدة، هي ألم، هي موت..

وأكبر انهيارات العصر الحديث هي الحرب والحرب والحرب..

أيّام المخيّم...

إنّه شهر أيار من العام 2013

اخضرَّت الأشجار وتفتّحت الأزهار، لتنشر الطبيعة بكل ما لديها من عبير على ما يحيط بها.

وقد خرجت جميع المخلوقات التي اختبأت طوال فصل الشتاء.

كانت مياه نهر الفرات تتدفق بعمق ملتفّة حول الأرجل الإسمنتية العريضة للجسر، والطيور تحلّق ذهاباً وإياباً حول الماء.

كان الجسر مقام على شكل مثلث قريب إلى مدينة بيرجيك، تلك المدينة السياحية التي تمتد بالقرب من جسر الطريق السريع، وعلى يمينها يقع جسر الفرات وعلى يسارها تلال شديدة الخضرة، لتصنع منها مدينة اسطنبول الصغيرة.

كان اختلاط أضواء شوارع المخيم وأضواء الجسر مع برودة مياه نهر الفرات تصنع منظراً مدهشاً، لا يمكن للمرء أن يرتوي منه.

وأصوات رفع الأذان مع أصوات قهقهات الأطفال السعداء، تجعل من المخيم مدينة مزدحمة.

الغرف المسبقة الصنع والممتدّة بجانب بعضها البعض بتناسق، كانت تتلاءم مع شوارع المخيم الواسعة وحدائق الأطفال والأشجار التي اخضرّت حديثاً.

كانت مئذنة المسجد، التي ترتفع أمام مياه نهر الفرات المتدفقة توحي بالصبر اتجاه كل أنواع المصاعب.

كانت رائحة الطبيعة المدهشة، المنبعثة من مياه النهر الباردة تداعب وجوهكم لحظة دخولكم المخيم، تشعر بإحساس شخص جلس في حجرة سفينة رست في ميناءها.

كان رضى الأمّهات أثناء عودتهن من تسوق حاجياتهن واضح جداً من خلال الابتسامة التي ترتسم على وجوههن، ومن الأكياس الكبيرة التي كُنَّ يحملنها بأيديهن.

كانت الخدمات على اختلاف أنواعها تُقدّم لجميع قاطني تلك المدينة التي قد أحيطت بسور من الأسلاك المعدنية الشائكة خشية أن يصيب سكانها الضرر أو الأذى.

على يمين ذلك السور تجد مبنى قبول القيود، الذي يتم من خلاله تقييد الضيوف الجدد ومنحهم وثيقة شخصية مؤقتة.

وبالقرب منه يوجد مستودع كبير تابع للمخيم.

أمّا على يساره كان يوجد مركز الشرطة، وبجواره الغرف المسبقة الصنع التابعة لموظفي المخيم ومبنى الإدارة.

وفي داخل المخيم يوجد مشفى مصغر تم إنشاؤه من أجل تقديم الخدمات الصحية للمواطنين على مدار 24 ساعة، وبداخله كادر كامل من الأطباء المتخصصين والممرضين والمترجمين ووسيلة للنقل (عربة الإسعاف).

أما المنطقة المخصصّة للمدارس، فكانت بضخامتها وتناسقها تظهر وكأنّها مدخل الجامعة.

تحتوي بداخلها على كل ما تحتاجه المؤسسة التعليمية، من حضانة ورياض أطفال ومدرسة ابتدائية وإعدادية وثانوية، بالإضافة إلى مكتبة كبيرة وغرفة للدعم النفسي ودورات مهنيّة وغيرها.

وأما بناء المؤسسة الاجتماعية، الذي يقع على سفح الجبل، فقد تم تصميمه فقط من أجل دمج أولئك الضيوف من أبناء المخيّم بالتكنولوجيا المتاحة.

غرفة الكمبيوتر التي تقابلها شاشات التلفاز، والمكتبة ومصفف الشعر والصالات التي تحوي منتجات صناعية كانت تصل سكّان المخيم بالحياة.

أمّا نهاية هذه المدينة فقد كانت عبارة عن صالة ضخمة مخصصة للغسيل، وبجانب المؤسسة الاجتماعية من الجهة الشرقية كان يتربع سوق ضخم يحوي كل ما يمكن للمرء أن يحتاجه.

كان الناس يتجهون إلى ذلك السوق ليقتنوا منه حاجياتهم عبر استخدام المال الذي مُنِحَ لهم بما يتوافق مع عدد الأفراد بكل أسرة، والذي كان يُقدّم على هيئة بطاقة تشبه البطاقة المصرفية.

ليعودوا إلى غرفهم حاملين بأيديهم أكياس التسوق التي احتوت على كل ما كانوا يتمنّوه.

أمّا في القسم الشرقي عند نقطة التقاء ضلعي المثلث يوجد ساحة واسعة شديدة الخضرة، يقع بجانبها مؤسسة اجتماعية، وجامع مطل على نهر الفرات مباشرة، ودورات تحفيظ القرآن، كل ذلك كان يجعل من المخيم مدينة سياحية وعصريّة جدّاً.

هنا في هذا المكان الذي تم تحضيره خصّيصاً من أجل استقبال اللاجئين السوريين ليكون مطابقا للمقاييس الدولية.

حيث تمّ تجهيزه بكامل المستلزمات من الإبرة حتى الخيط، دونما فقدان أي شيء.

فالقسم الأكبر من الموجودين في تلك المدينة كانوا إمّا أيتاماً، أو معاقين أو شيوخاً ونساءً.

هذا المخيم كان يضفي بالرحمة والاحترام على حوالي خمسة آلاف لاجئ تقريباً.

كانت تسير حياة اعتيادية داخل ذلك المخيم، رغم كل الآلام والأوجاع لدى قاطنيه، حيث كانوا يرونه وكأنه وطنهم الأم، ودائماً ما يتقدّمون بالشكر إلى الدولة التركية على ما تقدّمه لهم.

هنا وفي هذا المخيم كل حفنة من التراب كانت قد اختلط بها جهد وتعب إنسان ما.

كل خدماته كانت تقدّم من قبل طاقم عمل مجتهد ونشيط.

فلم يكن في هذا المخيم ساعات عمل محدّدة مطلقاً.

مدراء المخيم وموظفوه كانوا يصلون ليلهم بنهارهم، ليتمّوا أعمالهم التي كانوا قد بدأوها باليوم التالي فوراً.

فعندما يتعلق الأمر بالمهاجرين كان الجميع يتكاتفون بأيدهم لإنجاز ذلك العمل.

ففي كل مكان من ذلك المخيم تجد عرق الجبين والجهد والصبر.

ومن بين أولئك الأشخاص الذين بذلوا الجهد في ذلك المكان، وكان لهم فضلاً في نجاحه هو سنان أتاكان الذي كان يتولى منصب مدير مديرية حالات الطوارئ التركية (آفاد) في مدينة غازي عنتاب.

كان سنان أتاكان في الخامسة والأربعين من عمره، قصير القامة، ذو شعر أشيب ومرن التعامل مع الآخرين.

كان أهلاً لتقديم الخدمات للمهاجرين السوريين في مدينة نيزب والإصلاحية وقرقاميش والباب وجرابلس، واصلاً بذلك العمل ليله بنهاره.

هناك الكثير من الأسماء التي لمعت في بذل الجهد ضمن ذلك المخيم، بعضهم من موظفي الهلال الأحمر التركي وهم: فتحي كوجان، أيهان بالي، مصطفى صايتاش، اريديم تشولين.

وبعضهم الآخر من موظفي الآفاد وهم: خليل دمير، علي آدم أتش، أحمد دمير، محمد أوغوز، أوتور بيديللي، شيخ محمد ألجي، مصطفى يلماز، وداود أكبوغا وغيرهم.

بالإضافة إلى جنكيز غونيش، خليل قندرجي، محمد آلاغوز، محمد أوزدينيز، وأسماء أخرى عديدة قد لمعت بدورها وجهدها لإحياء تلك المدينة.

مسؤولون كُثر من داخل الدولة وخارجها كانوا يزورون هذا المكان ويريدون التعرف على سكان ذلك المخيم.

فالمئات منهم زاروا تلك المدينة ولم يخفوا دهشتهم وإعجابهم بالتنظيم والانضباط في ذلك المكان.

وكان من بينهم زوجة رئيس الجمهورية التركية السيدة أمينة أردوغان، والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، ووالدة الشيخ تميم أمير قطر السيدة موزة بنت ناصر، ووالي منطقة باويرارا الألمانية الدكتور بيت مارك، ورئيس مجلس الاتحاد الاوربي السيدة آنّي بروسير، ورئيسة المفوضية الغذائية في الأمم المتحدة السيد ألن كلارك، و وزير الخارجية الهولندي السيد برت كوندرس، و السيناتور في مجلس حقوق الإنسان الكندي السيد موبينا جيفير، والسكرتير العام للناتو السيد راسموسن، والكثيرين غيرهم من المسؤولين حول العالم من فرنسا وأمريكا والأمم المتحدة..

قلقت وردة وخافت في بداية الأمر.

كانت تتخيل المخيم كالمخيمات في الدول الأخرى، وتتردّد كثيراً من الاستقرار فيه.

كانت دائماً تتخيّل المخيم على أنه مخيف جداً، وغير آمن وبلا أي تنظيم، ليزداد بذلك قلقها.

إلا أنّه، وبلحظة دخولها إلى المخيم اختفت تلك المخاوف تماماً من مخيّلتها، ولم يبق لها أثر.

كانت ترى المخيم والغرف المسبقة الصنع واللوحة التعريفية الممتدة على طول ثلاثة أمتار عرضاً وعشرة أمتار طولاً بجانب نهر الفرات الذي يمر من فوقه جسر، وكأنه طوق اللؤلؤ الذي يشكل مشهدا جميلاً يَصعُبُ وصفه.

نزلت وردة من السيارة واتجهت نحو نقطة التفتيش.

بعد تقدّمها إلى الأمام بحوالي عشرة أمتار، ومن على طرفها اليمين شدّتها رائحة نهر الفرات التي تشبه المسك، لتذكرها تلك المياه المتدفقة بوطنها، وتزيد مياه النهر البراقة اشتياقها له.

وعند نقطة التفتيش، استقبلها موظف الأمن ذو البشرة السمراء، متوسط الطول وممتلئ الجسد بالترحيب، قائلاً: "أهلا وسهلا خالتي"، ثم أخبرها بضرورة عبورها عبر جهاز التفتيش ذو الأشعة.

تقدّمت وردة نحو جهاز التفتيش الذي كانت تراه للمرّة الأولى في حياتها، وتظهر على وجهها علائم الخجل والاندهاش.

ثمّ عبرت ذلك الجهاز الذي كانت أضواءه تنير باللون الأحمر والأخضر، قائلةً: "أهلاً بك يا ولدي".

أدرك الموظف حينها بأن وردة حديثة العهد على تلك الأمور، وقال:

"يا خالة، يجب عليك أن تضعي حقائبك على جهاز التفتيش الآخر هناك" مشيراً بيده نحو الجهاز.

نفذت وردة ما طلبه منها موظف الأمن على الفور، ثم غادرت المكان متجهةً نحو مبنى الإدارة.

كانت الدهشة واضحة على عيني وردة.

وقد تأثرت كثيراً من معاملة الموظفين الجيدة لها، وذلك يوضح أنها كانت ترى التقدير والاحترام لها للمرة الاولى في حياتها من قبل موظفين يرتدون زياً عسكرياً.

فوردة المنبوذة، المتضررة لم تعد كذلك، فهي الآن وردة المحترمة صاحبة القدر والقيمة.

أثناء مرورها بخطوات سريعة سألت المترجم عن ذلك المبنى المغطى باللون الأزرق على يسارها. فأجابها المترجم:

"إنّه المكان الذي يتم فيه توفير الأمان لكم، إنّه مبنى رجال الأمن (الجندرما)".

على الرغم من أن زوجها كان عسكرياً، إلا أنها كانت تخاف من العساكر كثيراً.

حيث رأت منهم الكثير من الظلم، وقُتِلَ برصاص أسلحتهم ما يقارب الأربعين شخصاً من أقرباءها.

لذلك ارتعدت فرائصها حالما رأتهم، وأدارت وجهها نحو الطرف الآخر.

تقدّمت وردة نحو مبنى الإدارة برفقة المترجم.

وإذ بها ترى عسكرياً يتوجه نحوها من جهة اليسار، وعندما رأته تمتمت بنفسها قائلةً: "يا رب لقد أصبح السلاح من الآن فصاعداً جزءاً من حياتنا، يوجَّهُ نحونا في كلّ مكان".

اقترب نحوها ذلك العسكري الذي كانت تلمحه بنظرات خائفة، وقال لها: "يا خالة، اشربي من هذا الماء، واضح أنك عطشى".

ثمّ أبعد سلاحه بيده اليسار واضعاً إيّاه وراء ظهره، ثمّ جثا على ركبته اليمنى مقبّلاً يدي أنس الصغيرتين.

ذلك المشهد لم تَعتَد عليه وردة، ففي بلدها كان العساكر يقتلون الناس، أما هنا فإنهم يقبلون أيدي الأطفال الصغيرة.

فأدركت أنها هربت من بلد تلطخت أيدي عساكرها بالدماء، وأنها وصلت إلى بلد امتلأت قلوب عساكرها رحمة وشفقة.

وابتهجت كثيراً لأنها لجأت إلى بلد تسوده الرحمة، ويعطي قيمة للإنسان ويحترمه.

وحتى وجوه الأطفال بدأت تبتسم.

فعادةً الحروب أكثر ما يظهر أثرها على الأطفال والنساء.

وفي الغالب فإن وردة هي أكثر المتضررين من تلك الحرب.

كانت الشمس وكأنها تشاهد الدنيا من أعلى تلك التلال في ساعات الصباح الباكرة.

والموظفون يدخلون إلى المخيم كالنمل، كلٌّ منهم يتجه نحو مكانه وعمله بخطوات سريعة.

واندفع الجميع للعمل بنشاط مع خيوط الصباح.

كانت وردة تتقدم برفقة الموظفين متجهة نحو الغرفة المسبقة الصنع التي ستقيم فيها بفرح وابتهاج، وكأنه كان موعد للقاء الحبيب.

كان موقعها خلف مبنى الإدارة ويتقدّمها مئذنة الجامع.

في تلك اللحظة كانت وردة تفتح صفحة جديدة في حياتها.

صفحة ذات شوارع جديدة وجيران جُدد، أمطارها وشمسها مختلفة، وأناسها، وأملها، وأحلامها أيضاً، كل شيء فيها مختلف.

كانت غرفتها -مسبقة الصنع- بأبعاد محددة وهي: سبعة أمتار طول بثلاثة أمتار عرض، موضوعة في مكانها المخصَّص، لتوحي بتلك الأبعاد التي بينها وكأنها حارة طبيعية ليست بالمصطنعة.

على يسار المدخل مباشرةً كانت تقع الحارة ذات الرقم A وتقابله الحارة B.

كانت وردة تعبر من جانب الأطفال الذين يلعبون، لترى بعد ذلك ساحل نهر الفرات الذي يقابل الحارة E وبمقابلها مباشرة تأتي الحارة C و D.

أثناء تقدمها لمحت عيناها رجلاً عجوزاً يجلس فوق كرسي متحرك ذي عجلات في أحد الزوايا.

كان رجل في السبعين من عمره، غارت ملامح وجهه من تقدمه بالسن، ضعيف البنية، وقد اصفرّ شارباه من كثرة شرب السجائر.

كان جالساً على الكرسي ومتكأً بذراعه اليمنى على طرف الكرسي سانداً بها ذقنه.

كان يشرب قليلاً من السيجارة التي يحملها بيده اليسار بنظرات حزينة ومهمومة.

تعرّف على وردة، والتي هي بدورها تعرّفت عليه، لكنّها لم تتفوه بكلمة من شدة خجلها.

لقد كان ذلك الموظف العسكري الذي جمعها بزوجها المتوفى في سجن تدمر قبل سنين عدة.

حزنت وردة وتأثرت كثيراً، لكنها أكملت طريقها دون أن تنطق بأية كلمة.

وصلت وردة أخيراً إلى الحارة التي ستقيم فيها، والتي كانت تحمل الرقم G.

يقابلها مباشرة الحارة H وفي الاتجاه الآخر رأت مئذنة مسجد الحارة J.

كانت غرفتها المسبقة الصنع تحمل الرقم G 8-8.

عند دخولكم تجدون أمامكم مباشرة مدخلاً صغيراً، وبمقابل ذلك المدخل الحمام والمغسلة.

من على اليمين توجد غرفة الجلوس، وعلى اليسار توجد غرفة صغيرة تستخدم في أحد زواياها كمطبخ.

استقرت وردة أخيراً في منزلها الذي ستقيم فيه مع ابنتها وأحد عشر حفيداً، ثمَّ رتّبَت بعد ذلك الأشياء التي أحضرتها معها.

وبعد ذلك بقليل قُرِعَ باب المنزل الجديد من قِبَل موظفي المخيم الذين قد أحضروا لها أشياء أساسية تحتاجها للمعيشة كثلاجة صغيرة، وأدوات مطبخية وأغطية ووسائد وأدوات تنظيف وغيرها.

فرحت وردة كثيراً في ذلك الوقت، ووجدت طعماً للفرح الدفين داخل روحها من جديد.

فمن جهة هي نهاية كل الأوجاع التي عاشتها في حياتها على مدار كل تلك السنوات، ومن جهة أخرى هي بداية حياة جديدة آمنة ومريحة.

كانت ترى كل ما جرى لها على أنه امتحان إلهي، وتكمل طريقها بصبر دائم.

تحاول نسيان كل الأيام الصعبة التي عاشتها وتكمل طريقها موكلةً أمرها لله، من الآن فصاعداً لن تسمع صوت السلاح ولن يطرق بابها قاطع طريق.

لن تراقب قدوم طائرات الحرب التي قطعت قلوب الكثيرين ولن تسمع صوتها حتى.

فالأيام العصيبة أصبحت من الماضي الآن، وحلّ مكانها أيّام آمنة.

كانت تذكر الله عزّ وجل في أيّامها كُلِّها، بحلوها ومُرّها، متوكلةً على الله لتكمل حياتها.

تقرأ القرآن الكريم عندما تجد وقتاً فارغاً، وتستمع إلى كلام الله عز وجل.

من الآن فصاعداً محَت من ذاكرتها أيّامها المؤلمة كُلِّها، فقد تركتها للماضي وبدأت حياة جديدة وآمنة.

انتهى ذلك الوقت الذي كانت الكوابيس تملأ ليلها، وبدأ الوقت الذي تحتسي فيه قهوتها بأمان وهي تتبادل أطراف الحديث مع صديقاتها.

بابها الآن لم يَعُد يُقرع من قبل العساكر أو رجال الأمن من أجل الاعتقال، وإنما يقرع لأجل المساعدة ومد يد العون لها.

أصبح زوارها الآن رفيعي المستوى، يأتون إلى المخيم ليتعرّفوا عليها ويحتسون شايها.

والناس محيطة بها، يحترمونها وكأنّها أمّهم.

عاشت وردة في ذلك المخيم حياةً لم تَعتد عليها، ونسيت فيه جميع أيامها المؤلمة.

وكانت دائماً تصف أيام المخيم قائلةً:

" أتيتُ إلى مركز حماية يسمى مخيم، لم أَرَهُ أو أتخيّله طوال عمري.

كنت في البداية خائفة وقلقة، لكن كل أفكاري وتخيلاتي تبدّلت بعد أن وصلت إلى المخيم واستقرّيت هنا.

استقرّينا هنا وتعرّفنا على جيراننا الجدد، وقُدّمَ لنا كلّ أنواع الدعم والمساعدة في هذا المخيم.

هنا وفي هذا المكان فقط أصبحت حياتنا طبيعية، الأطفال يذهبون إلى المدارس، الناس تشتري حاجياتها اليومية بشكل طبيعي، وفي البيوت يطهى طعام لذيذ وساخن.

وعاءُ الحساء الذي لطالما كنّا نحلم به، أصبح الآن وعاء حساء ساخن مع اللحم.

والسعادة بدأت تظهر على وجوهنا.

كانت ابنتي وفاء قد التحقت بدورات لتعليم القرآن، ودورات تعلّم تصفيف الشعر. أما أنا فالتحقت بدورة لتعليم الحياكة حتى أُمضِيَ وقتي.

لقد أعادت لنا تركيا كلّ ما فقدناه.

أصبحت تركيا بالنسبة لنا كلّ شيء كُنّا قد فقدناه في سوريا، وطنُنا ومالنا وأزواجنا وأولادنا، وعدنا لنكمل حياتنا بأمل وسعادة.

وبكل تأكيد أنا الآن أعيش أكثر أيام عمري أماناً".

اختفى الخوف والقلق والحرب والجوع والظلم وحلّ مكانها الأمن والأمان والأمل.

تم الترحيب بهؤلاء المهاجرين أشدّ ترحيب، فقد ضمدوا جراحهم وزادوا تمسكهم بالحياة.

كانت ودرة دائماً ما تذهب إلى شاطئ نهر الفرات بصُحبَة أحفادها لترفِّهَ عن أنفسهم وتنسيهم أوجاعهم، لتنتقل بعد ذلك إلى زيارة حدائق المدينة.

لم يَعُد يُقرَع بابها من قِبَل العساكر المسلّحين، وإنما يقرع من قِبَل رئيس الجمهورية ووزراءه الذين قَدِموا لزيارتها.

أحفادها قد كبروا الآن..

زوارها المُهمّين..

كان وقت العصر من شهر نيسان، وجمال فصل الربيع ظاهر للأعين.

التلال الممتدة على يمين المخيم كانت قد ارتدت ثوبها الأخضر الزاهي، والأشجار زادت خضرتها.

والغراس التي زُرِعت على يمين ويسار شوارع المخيم قد تفتّحت حديثاً.

والعصافير تزقزق على الأغصان بأشدى الألحان.

كان نهر الفرات يتدفق بشكل جميل جداً، يعكس بدوره نسمات فصل الربيع المرحة.

كانت الطبيعة تقدّم كلّ ما تملك من جمال أخفَتهُ طوال فصل الشتاء.

والناس قد خرجوا للتنزه والتجول بين البيوت تعويضاً عن الأوقات التي قضوها بالداخل طوال فصل الشتاء.

ابنتها وفاء كانت قد ذهبت إلى دورات التعليم التابعة للمركز الثقافي ولم تعد بعد.

وأحفادها يلعبون مع أصدقائهم في الخارج.

أمّا وردة وبعد أن انتهت من ترتيب المنزل، أخرجت كرسياً أبيض اللون كُسِرَت ذراعيه، وطاولة صغيرة جوزيّة اللون انتفخ سطحها العلوي، ووضعتهم أمام باب المنزل.

وجلست لتحتسي شايها الساخن الذي يتصاعد منه البخار.

ألقى عليها السلام مترجم ضعيف البنية أسمر البشرة بلغته العربية الغير مفهومة، ثم قال لها: "إن كنت غير مشغولة سيأتي القائم مقام لزيارتكم".

وضعت وردة مباشرة كوب الشاي الذي كان بيدها على الطاولة وقالت: "القائم مقام!! أهلاً وسهلاً!! أهلاً وسهلاً".

"طبعاً فليتفضّل".

جمعَت كل الأشياء التي كانت أمامها بتوتر، ثمّ أدخلت أكواب الشاي إلى الداخل بعد أن جمعتها.

ثم جلست تنتظر ضيفها بعد أن أعادت ترتيب المنزل.

بدأت الشمس تختفي بين الجبال رويداً رويداً، وأصبحت مياه نهر الفرات تكتسي لونها الأحمر مع غياب الشمس.

وكانت شوارع المخيم مازالت ممتلئة بالأطفال، تحيط بهم نسمات الهواء الباردة.

بعد قليل قَدِمَ من الشارع الرئيسي بعض الأشخاص، يتقدّمون بخطوات بطيئة.

كان في المنتصف السيد قائم المقام هارون شارف أك أوغلار مرتدياً بذلةً رسمية، طويل القامة يضَعُ نظارة.

كان على يمينه مدير المخيم، ومدير الشرطة العسكرية وغيرهم، كانوا يمضون باتجاه منزل وردة.

أثناء مسيره كان يدقّق بالمخيم ويعطي تعليمات لموظفيه من أجل تلافي جميع النواقص.

كان قائم المقام السيد هارون شارف أك أوغلار بين الخامسة والأربعين والخمسين من عمره، ذو قامة طويلة وممتلئ الجسد.

كانت نظارته بقسمها العلوي المسطح والسفلي المقعر، تظهر تناغماً جميلاً.

أثناء مشيه كان يترك يداه حرّتان للغاية.

كان ممتلئ الوجه، عريض الكتفين، يمشي بهدوء، ولا يفلت أي شخص من انتباهه.

على الرغم من أنه قائم مقام المدينة، إلا أنه كان يرتدي ألبسة عادية وكأنه مواطن عادي، ويتحدّث مع كل من يُصادفه، ويسأل دائماً عن أحوالهم.

يمازح الجميع، لكنه كان جدّياً في كثير من الأحيان.

ترك الدنيا لمحبّيها، وانهمك ليملئ صحيفته بالعمل الجيد.

كان إدارياً ناجحاً، ومسلماً حقيقياً، صديقاً قيّماً وإدارياً رحيماً.

حمل مسؤولية 35 ألف مهاجر سوري في نيزب على كتفيه، يسعى بذلك ليكون إدارياً أنصارياً.

يتابع أعماله ومهامه من أجل المدينة خلال أوقات العمل، ويزور اللاجئين في المخيم خارج أوقات العمل.

يتغلغل بين الشعب ليستمع إلى همومهم فرداً فردا.

وصل السيد قائم المقام إلى منزل وردة، ليدخل إلى الداخل.

القى السلام بصوت متواضع قائلاً: "السلام عليكم".

ثم اتجه إلى الزاوية اليمنى مباشرة ليجلسَ متربّعاً على اسفنجة ذات لون أسود داكن.

دخلت وردة بعد قليل، وهي ترتدي حجابها ذو اللون الأبيض، لتجلس على يسار الباب مباشرةً وقالت: "أهلاً وسهلاً، شرّفتم ونوّرتم منزلنا".

تبسّم السيد قائم المقام قائلاً: "أهلاً بك"، وبعد أن سأل عن حالها أكمل حديثه قائلاً: "أنتم موضع اهتمام بالنسبة لنا، ضيوف الله والطريق الذي نَصِلُ من خلاله إلى الجنّة، سيكون مكانكم فوق رؤوسنا طالما بقيتم على هذه الأرض، وتأمين جميع احتياجاتكم هي وظيفتنا الإنسانية والإسلامية.

هذه الأرض هي لنا ولكم، أجدادنا حاربوا معاً في معركة تشاناك كله، وحرّروا هذه الأرض من العدو".

ثمّ أشار إلى المترجم الذي رافقهم ليترجم ما يقوله.

كانت وردة تجلس على كلتا ركبتيها وتصغي بانتباه متأثرة، تدمع عيناها من الفرح.

تستمع إلى جُمَل القائم مقام باندهاش وإعجاب، ولا تستطيع أن تخفي دهشتها.

كانت فَرِحة وحزينة في نفس الوقت.

فَرِحةً لأنها ترى إدارياً رفيع المستوى ولأول مرّة، وهذا الإداري مسلم حقيقي ويقوم بوظيفته على أكمل وجه.

وحزينة لأنها لم تر في بلدها قَط هكذا إداري ودود وهادئ.

وبعد قليل نادت وردة الأولاد لكي يحضروا القهوة.

ثم دخلت ابنتها وفاء تحمل بيدها أكواب القهوة، قدّمتها للقائم مقام أولاً ومن ثم لضيوفه، وجلست إلى الجانب الأيمن من أمّها.

وضعت وردة يدها فوق كتف ابنتها وفاء ثمّ قالت:

"هذه ابنتي، واسمها وفاء، لديها سبعة أيتام، وزوجها استشهد في سوريا".

تأثر القائم مقام عند سماع ذلك ودمعت عيناه، رفع نظّارته عن عينيه ثم مسح بأصابعه كلتا عينيه.

أنهى شُرب قهوته، ووضع الكوب على الأرض قائلاً: "ليجعل الله مثواه الجنّة، ويصبّركم على فراقه، فالموت هو طريقنا جميعاً.، ويالكم من محظوظين فقد ربّيتم أيتاما.

على الأغلب لديك ابن شاب ويمكنك الآن أن تحسبينني ابنا لك أيضاً.

لذلك أرجوا أن تُعلموني فيما إذا واجهتكم مشكلة ما".

ثمّ استأذن للمغادرة وخرج.

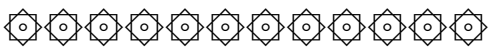

زائرها الثاني.. علي شاهين

كان فصل الربيع من عام 2014

والشمس قد أطلّت لِتَوِّها بنورها الجميل، وأشعتها الحمراء في وقت الشفق، قد غطّت المخيم ليبدو وكأنّه عروس ترتدي بدلةً حمراء، لتضيء الكون.

كانت خيوط أشعة الشمس المنبعثة حديثاً تنشر الأمل في الناس.

وخيوط الفجر الأولى عندما تظهر على سطح مياه نهر الفرات، كانت توحي وكأنها لوحة فنّانٍ رُسمت بألوان زيتية.

كانت مياه النهر تتدفق بسرعة تسبح معها الأعشاب التي نمت على حواف النهر، في ذات الاتجاه.

كان جميع الرجال الذين يخرجون من تلك البيوت المسبقة الصنع، يستنشقون رائحة النهر المدهشة، ويسيرون بخطوات سريعة تجاه المسجد لأداء صلاة العيد.

فقد كانت نداءات التكبيرات التي تَخرُج من مئذنة المسجد تدعوا الجميع لأداء الصلاة.

كان كل من يصل إلى المسجد يصلّي ركعتين تحية المسجد، ثم ينصرف ليجد مكاناً فارغاً يجلس فيه بوقار.

بعد قليل حصل ازدحام أمام المسجد، التفَتَ الجميع إلى الوراء، ينتظرون بفضول دخول ذلك الشخص من باب المسجد.

ثم دخل رجل بخطوات سريعة، وأخذ يشق صفوف المصلين ملقياً التحيّة عليهم يمنة ويسرة، إلى أن وصل إلى الصف الأمامي.

وتقدّم من خلفه مرافقته ليجلسوا في أماكن مناسبة لهم.

أمسك الإمام بيده مكبّر الصوت، ثمّ تحدّث باللغة العربية قائلاً:

"أيها الأخوة المسلمون، انضمّ الينا قبل قليل وكيل الشعب عن ولاية غازي عنتاب السيد علي شاهين، وسيكون معنا بعد الصلاة من أجل المعايدة".

ثم اتجه نحو المحراب، انتظر قول المؤذن "الصلاة جامعة" من أجل أداء صلاة العيد.

ثمّ صلّى بالحضور ركعتي صلاة العيد بصوت داودي.

وبعد انتهاء الصلاة اتجه نحو المنبر من أجل أداء خطبة العيد.

وألقى الخطبة التي كان موضوعها الأساسي الأعياد وبهجة العيد، وذلك باللغة العربية والتركية.

نزل الإمام من على المنبر بعد أن أنهى خطبته، وقدّم مكبّر الصوت للسيد علي شاهين، تاركاً له الحديث.

كان السيد علي شاهين بطول متر وخمسة وسبعون، مدوّر الوجه، نظراته حادّة وذو حاجبين مقطبين.

يمتلك عيوناً سوداء.

يَثِقُ بنفسهِ وهو يتكلم، ويتحدّث باختصار، ويصغي لمن يقابله بشدّة، ولا يُعيد ما يقوله.

كان يفرح عند تقديم المساعدة للناس، ويحرص على دعم الفقراء.

يعيش وكأنّه إنسان عادي بالرغم من أنه وكيل الشعب.

هو طفل لأب عادي يكتب الشعر، إلا أن القدر أوصله إلى الباكستان ومن ثم اسطنبول من أجل إنهاء تحصيله العلمي.

تمّ انتخابه كممثل للشعب في مدينة غازي عنتاب عن انتخابات عام 2011.

وأصبح ممثلاً للمواطنين في مجلس الشعب التركي.

كان لعلي شاهين نمط حياة اعتيادية.

وكان مسلماً صادقاً وصديقاً صدوقاً.

كان ينتهز الفرصة ليقدّم يد العون للمهاجرين السوريين، ويتعامل معهم وكأنه أخ وصديق لهم.

كان دائماً ما ينصر المظلومين، ويمضي تقريباً معظم أعياده إلى جانبهم.

لا يدّخر جهداً في سبيل الحق، ويسعى دائماً في طرق الخير، ويشارك الناس همومهم مستعيناً على ذلك بمركزه ونفوذه.

انتهت صلاة العيد، وأمسك السيد علي شاهين مكبّر الصوت، ثم قال بصوت حزين ومرتجف: "السلام عليكم إخوتي الأعزاء! أتمنى لكم عيداً سعيداً، وأعلم تماماً كم هي كبيرة آلامكم، وعذاباتكم، وأنا هنا من أجل ان أقضي العيد معكم، لا مع عائلتي.

فأوجاعكم هي أوجاعنا.. أنتم لستم لاجئون، إنّما أنتم إخوتنا وضيوفنا الأعزاء، وهذا الوطن لكم مثلما هو لنا".

ثم حنى رأسه للأمام حزيناً، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً، رفع رأسه ليكمل حديثه:

"إخوتي! إن الطيور والعصافير المحلّقة في سماء حلب، هي نفس الطيور والعصافير التي تحلِّق في سماء نيزب، فما تعنيه لنا نيزب هي تماماً ما تعنيه لنا حلب، وما تعنيه لنا أنقرة هو ذاته ينطبق على الشام..

فأعرافنا واحدة، وتاريخنا وثقافتنا وعاداتنا وأخلاقنا واحدة، حتى الأسماء التي نطلقها على أبنائنا هي ذاتها أيضاً، ولا يوجد بيننا أي اختلاف أو فروقات.

وسيكون الاهتمام بكم طوال فترة بقائكم هنا هو دين في أعناقنا".

وأنهى بتلك الجملة حديثه.

بعد ذلك بدأ بمصافحة الجميع ليهنِّئهم بالعيد، ثمّ خرج مع ذلك الازدحام من المسجد واتجه بخطوات موزونة باتجاه مخرج المخيم.

حتى وصلوا إلى الحي ذو الرقم G، وعندها طلب السيد علي شاهين زيارة وردة الحجي وتوقف أمام باب منزلها.

كان قد سمِعَ باسمها سابقاً، إلا أنّه لم يجد الفرصة المواتية للتعرف عليها.

قرَعَ باب المنزل، ثم دخل باحترام وألقى التحية، والبسمة ظاهرة على مُحياه قائلاً: "السلام عليكم".

ردّت وردة وهي ضاحكة الوجه وقالت: "وعليكم السلام".

بدَت وكأنّها تعرفه منذ أعوام طويلة، احتضنته وكأنه أحد ابناءها، ثمّ طبعت ثلاث قُبَل على جبينه.

بعد ذلك جلس علي شاهين في مكان أشارت له إليه، وأخذ يُنصت إليها.

كانت وردة تقصّ عليه كل ما عاشته والدموع تنهال من عينيها، وتمسح دموعها بين الحين والآخر.

بينما كان علي شاهين يستمع اليها بكل اهتمام، فلم يستطع أن يتحّكم بدموعه عند سماعها.

وبعد ذلك قاطع حديثها متحدّثاً -وهو قاطبٌ حاجبيه- قائلاً:

"لن يفيدهم كل ما صنعوه، فلا بد أن يأتي يومٌ يحاسب فيه الظالم على ما اقترفت يداه..

لم يكن لدي سوى أم واحدة حتى اللحظة، أما الآن فقد صار لدي اثنتين.

لذلك أرجوا أن تقبليني كابن لك".

ثمّ انحنى مقبّلاً يدها وطلب الإذن بالمغادرة.

وبعد أن غادر منزل وردة، قال لمن حوله: "نحن في بلد يفتح أحضانه لكل المظلومين، لذلك فإنّ الله تعالى سيُسدّدُ خُطانا أينما توجّهنا".

بعد عام كامل:

مضت الأيام والأسابيع والشهور، كان الوقت يمضي سريعاً كالماء المتدفق.

تتقدم وردة في السن شيئاً فشيئاً، ويزداد وزنها.. وأحفادها يكبرون..

غير أن حياتها كانت تسير بشكل طبيعي، وقد نسيت مع الأيام كل همومها.

انتهت ليالي الشتاء الطويلة والباردة، واختفت الغيوم السوداء لتَحُلَّ محلها سماءٌ صافية شديدة الزرقة.

مياه نهر الفرات تجري مترنحة، وقد ساد هدوء تام في المخيم.

انتهى أذان المغرب واتجه الناس لأداء الصلاة.

وقد اختلطت أصوات الأطفال مع زقزقة العصافير، وبدأ الجو يُظلِمُ شيئاً فشيئاً.

ابنتها دلال كانت تقيم في الحي J. بينما كان نسيبها ياسر لا يزال يقاتل في صفوف الجيش السوري الحر منذ سنوات.

تعرض للإصابة عدة مرات، إلا أنه وبفضل الله لا زال على قيد الحياة.

مضت فترة طويلة لم تصِلهم أخباره.. حان وقت زيارة المخيم.. لكنه لم يأتِ!

خرجت وردة تستمتع بالهواء العليل في طريقها لزيارة ابنتها دلال..

كانت مائدة العشاء لا تزال على الأرض.

القليل من الزيتون الأسود.. الجبن.. والطماطم، هذا كل ما كان على المائدة، فقد كانت دلال متعبة في ذلك اليوم، ولم تتمكن من طهي الطعام، واكتفت ببعض مؤن المنزل.

اقتربت دلال من أبناءها قليلا أثناء جلوسهم على مائدة الطعام ليفسحوا مكاناً لوردة.

وكانت دلال قد غضبت من ابنها علي، الذي قام بسكب الماء على الأرض.

بينما كانت وردة تحاول تسليتها وتهدئتها.

وبعد قليل قاموا برفع مائدة الطعام من على الأرض، وجلسوا يحتسون الشاي.

تأخر الوقت، وبدأ الأولاد يتمدّدون على الفراش، الذي كان ممدوداً على الأرض ليخلدوا إلى النوم.

كان في الزاوية اليمينية المزينة طاولة وفوقها تلفاز، اصطفت على يمينه ويساره أنواع مختلفة من الأكواب والأطباق.

وتحوي في أسفلها رفٌّ صغير كان الأطفال قد رتّبوا فوقه كتبهم.

ثم جلست دلال إلى يمين والدتها واضعةً إحدى يديها على كتفها والأخرى لفّتها حولها، لتَضمّ والدتها نحوها قائلةً: "أمي حبيبتي، أنت كل شيء بالنسبة لنا".

في تلك الأثناء بدأ الهاتف الموجود فوق التلفاز يرن باستمرار.

تناولت دلال الهاتف بيدها مباشرةً، إلا أنّها لم تجب، وذلك لأن الرقم المتصل غير مسجل لديها.

ثمّ أخفت صوت رنين الهاتف الذي استمر بالرنين، وتركته بدون أن تجيب الشخص المتصل لتَضعه فوق التلفاز ثانيةً.

عندها سألتها والدتها: "لماذا لم تجيبي يا ابنتي"، إلا أنها لم تجب، ولم تكن تريد سماع صوت رنين الهاتف.

صوت رنين الهاتف في هذه المرة كان مختلفاً بالنسبة لدلال، فقد بدى وكأنه يلامس قلبها ويمزّق فؤادها.

حيث كانت تلك المرّة الأولى التي يظهر فيها كرهها الشديد للهاتف.

ربّما كان خبراً سيئاً.. أو خبراً ينطفئ فيه فؤادها، أو أنه خبرٌ يأتيها من مدينة مارع، أو.. أو..؟

بعد ذلك انتهت والدتها من شرب الشاي وغادرت ذاهبةً إلى منزلها.

رافقت دلال والدتها ودخلت معها إلى المنزل، إلا أنها كانت متوترة وقلقة، ولا يزال ذلك الاتصال يشغل فكرها.. هل كان عليها أن تُجِيب يا تُرى؟

تمكّنت دلال من التغلب على المخاوف التي راودتها قبل قليل، وبعبارة أخرى يمكن القول بأنها أخّرت الأخبار السيئة قليلاً..

زوجها ياسر كان حاله كحال الكثير من المقاتلين السوريين، فلم يترك بلده للظّلام، وحارب من أجل الوقوف في وجههم.

في الواقع كان ذلك الهاتف يحمل خبر وفاة زوجها.

كانت دلال فقدت والدها في أحداث حماة، وترعرعت يتيمة، وبعد ذلك توفّيت زوجة أخيها عباس، وأصبحت أختها الصغرى وفاء أرملة، وكبرت تماماً مثل أمّها.

عانت دلال أيضاً من الحرب، لكنها لم تكن تريد رؤية وجه الحرب البشعة لأكثر من ذلك، ولهذا السبب قَدِمت إلى تركيا إلى المخيم بصحبة أبنائها التسعة لتكمل حياتها هناك، في بيت مسبق الصنع مؤلف من غرفتين.

بعد قليل عاد الهاتف إلى الرنين مجدّداً..

إلا أن دلال لم تكن تريد أن تنظر إليه.. خافت وقلقت ثم عادت لتدخل إلى الغرفة مرة أخرى.

شبكت يديها ببعضها البعض، ثم حنت رأسها للأسفل قليلاً، وأخذت جهاز الهاتف لِتُمعِنَ وبسرعة في الرقم المتصل.. تردّدت قليلاً في أن تعيد الهاتف إلى مكانه.. إلا أنها فتحته واضعةً إيّاه على أذنها قائلةً: "ألو".

"السلام عليكم، هل أنت من أقرباء ياسر يا أختاه"، ناداها المتصل بهذا القول..

أجابت دلال بصوت خائف ومرتجف: "نعم، انا زوجته، تفضّل ماذا تريد؟".

سكَتَ الرجل قليلاً، ثمّ أخذ نفساً عميقاً وقال: "إنّا لله وإنّا اليه لراجعون..

استشهد خالد، ولاقى ربّه، وإنّ مصيره إلى الجنة إن شاء الله.. وأنت الآن زوجة الشهيد.. افرحي يا أختاه".

صرخت دلال بحرقة بعد سماعها ذلك الخبر، وسقط الهاتف من يدها، ثم هوت على الأرض.

سقطت على الأرض دون أن تنطق ولو بكلمةٍ واحدة، لتَفقِدَ وعيها بعدها.

بعد قليل بدأت تفتح عينيها قليلاً وهي تردد: "حسبي الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير".

الله هو حسبنا وهو نعم الوكيل..

استندت دلال إلى الجدار بيمينها، ووضعت يدها الأخرى على الأرض لتحني رأسها إلى كتفها قليلاً وتمسح دموعها بيدها اليسرى وهي تدعو بالرحمة لزوجها.

كان الوقت منتصف الليل، ومضى تقريباً على جلوس دلال في مكانها ما يقارب الساعة.

كان كل شيء هادئ، نهر الفرات والسماء والمخيم، كل شيء كان في حالة سكون.

وكانت صرخات دلال المتكررِّة تشقُّ سكونَ الليل لتكون لحناً للخفافيش.

نهضت دلال من مكانها شيئاً فشيئا، واتجهت نحو الغرفة التي ينام فيها الأطفال.

فتحت الباب، ثم نظرت إليهم فرداً فردا، وأمعنت النظر في وجوههم والدموع تنهال من عينيها.

لكنها لم تستطع ان تحتمل أكثر، وبدأت تبكي بحُرقة.

اتجهت نحو المغسلة قبل أن يستيقظ أبناؤها.. توضّأت وصلّت ركعتين على سجادتها.

ثمّ فتحت كفّيها ورفعت رأسها إلى السماء داعية:

"إلهي..

ربّي إن أمي نشأت يتيمة، وأنا نشأت يتيمة مع إخوتي، وأبنائي سيكبرون أيتاماً منذ اليوم.

فيا رب احمهم لي مثلما حميتنا واحفظهم..

يا رب سكّن أوجاعنا، وارزقنا الصبر والقوة على التحمل، يا رب.. الهم آمين".

انهت دعاءها بتلك الكلمة، قالتها وكأن جميع المخلوقات من حولها والسماء والأرض رددوا معها بصوت واحد: "آمين".

وبعد أن أنهت دعاءها ضمّت كلتا كفَّيها، ماسحة بهما على وجهها، وفي تلك الأثناء لامس خاتم الزواج الذي قدّمه لها زوجها عينيها.

وفي تلك اللحظة مرّت أمام عينيها كلّ أيام حياتها التي أمضتها برفقة زوجها، بدءاً من اللحظة الأولى التي تعرّفت فيها عليه وإلى تاريخ اليوم.

تذكّرت كلّ شيء قد فعله زوجها من أجل سعادتها وسعادة أبنائهم رغم كل جراحها الدامية، فعادت الدموع لتذرف من عينيها مرّةً أخرى، وكأنها سيل مطر منهمر.

بعد انتهت، قامت بطي سجادتها التي تبلّلت من دموعها، والتي أصبحت شاهدةً على استشهاد زوجها، لتضعها في الزاوية.

وأبناؤها التسعة أولئك سيبقون بدون أب من الآن فصاعداً.

كان الخبر لم يصل إلى وردة بعد، لذلك كانت تنام في منزلها دون أن تدري بأي شيء.

ارتدت دلال ثيابها ووضعت حجابها الذي يغطي رأسها وإلى الأسفل من جسدها، بعيونٍ قد احمرّت من شدة البكاء لا تكاد ترى بهما، وفتحت الباب بهدوء، وخرجت تقصد أمها.

كانت الشوارع هادئة وساكنة، وأضواء القمر والنجوم بدَت وكأنها تشعّ بشكل أكبر من أجل استشهاد زوجها ياسر.

لطالما أن نجوم السماء الزرقاء تعكس نور الشهداء في الدنيا.

وصلت دلال إلى الباب وقرعته بهدوء.

لكنّ أمّها كانت نائمة ولم تسمع صوت الباب، لذلك عاودت دلال لقرعه مجدّداً.

استيقظت وردة واتجهت نحو الباب بعينين يغلبهما النعاس وقالت: "من بالباب".

ثمّ فتحت الباب قليلاً، وعندما عرفت أن من في الباب امرأة متلثّمة فسارعت لإغلاقه، إلا أنّ ابنتها دلال نادتها، فإذ بوردة تفتح الباب بعد أن عَرَفت صوت ابنتها.

رفعت دلال الحجاب عن وجهها، وأسندت يدها اليمين إلى حافة الباب، ونادت على أمّها وهي تدفع الباب بيدها اليسرى: "أمّي".

قالت وردة وهي قلقة: "ما الذي حدث يا ابنتي، لم أنت على هذه الحال؟".

لكن دلال بالكاد استطاعت أن تقول: "ياسر، ياسر، أمّي لقد ذهب ياسر".

بذلك أدركت والدتها ما الذي حصل فعلاً، فحضنت ابنتها بشدّة.

بعد قليل استيقظ كلّ من وفاء والأطفال النائمين في الداخل عند سماع صوت البكاء على باب المنزل، وخرج الجميع لرؤية ما يحدث عند الباب.

كان صوت البكاء يُسمَعُ في كافة أنحاء الشارع.

وردة التي زفّت بناتها بأحلام كبيرة، إذ بهم يعودون إليها الآن مع أبنائهم الشباب.

سَمِعَ الجيران صوت البكاء، فخرجوا على الفور مسرعين باتجاه منزل وردة.

امتلئ منزل وردة الصغير بالنساء.

كانت وردة تبكي، ومعها ابنتها وفاء ودلال وكل الأطفال كانوا يبكون، حتى الملائكة كانت تبكي لبكائهم.

كانوا يبكون بحرقة نابعة من أعماق قلوبهم.

بكى معهم كلّ شيء، الزمان والمكان والسماء..

بكت معهم الشام وحلب ومارع وإدلب حتى اسطنبول والقدس.

حقاً قد بكى معهم كل شيء..

يا له من امتحان صعب وثقيل يا رب؟

عاد ليقرع بابها فجأة، بعد أن كاد ينتهي..

عندما وصلوا إلى منتصف الحياة، أصبحوا فجأة على حافة الموت، أخذهم القدر إلى بلد جديد، ولكنه أمسك بهم فجأةً ليعيدهم إلى الحافة مجدّداً.

لم يعرف الألم اسماً أو بلداً أو مملكةً، يمكن أن يأتيك في كل مكان وفي أي وقت.

استطاع الجيران تهدئتهم أخيراً، وسكنت أصوات الصراخات بعض الشيء.

البعض من الجيران أخذ أبناء دلال، وبعضهم الآخر أخذ أبناء وفاء، ومنهم من أخذ أبناء عباس إلى منازلهم.

ووردة كانت تعيش ألمها السادس.

وفاة أبيها وحياتها يتيمة..

وفاة زوجها وكونها أرملة..

وفاة زوج ابنتها وفاء ورعايتها هي وأبناؤها الأيتام..

وفاة زوجة ابنها عباس ورعايتها لأبنائها الأيتام..

تركها لوطنها والأيام التي هجّرت فيها..

والآن وفاة زوج ابنتها دلال ورعايتها هي وأبناؤها الأيتام التسعة..

كل هذا كان له اسم واحد.. وردة الحجي..

عشرون يتيماً وأرملتين..

يتيمة في طفولتها..

أرملة في شبابها..

لاجئة في شيخوختها..

وعشرون يتيماً وأرملتين في رحلة تهجيرها..

اسمها كان يعني الحزن، المعاناة، الألم، الهجرة، اليتم، الترمل، واللجوء.

نعم كل هذا له اسم واحد.. الامتحان..

كانت تقف مرفوعة الرأس رغم كل الآلام والمآسي التي عاشتها وشهدتها.

تذرف عيناها الدموع كلّما تذكرت ما عاشته، دون أن تشتكي..

ذاقت كل أنواع الألم والحزن والهم والشوق معاً، تحاول أن تحتوي كل شيء قد ذكّرها به القدر.

فلا توجد ولادة بلا ألم، وهي كانت تعلم تماماً أن كلّ هذا الألم والوجع كان دليلاً لحياة جديدة في الجنّة.

لأنها كانت عند سجودها بين يدي الله عز وجل تقول: "وبشّر الصابرين".

كانت تماماً مثل فراشة رقيقة لها أربعة أجنحة وبلا أي قوّة، لكنها وبفضل ألوان أجنحتها الرائعة تلك تمكّنت من ترك بلدها واللجوء إلى تركيا.

كانت فراشة مكسورة الجناح، وكأن الحرب سلبت منها كل شيء وأودعته التراب.

وساقا الفراشة ضعيفتين، لذلك ليس لها أي وسيلة للحركة سوى جناحيها الرقيقين.

وإن جسد الفراشة عند خروجها من شرنقتها يكون رطباً، وجناحاها ضعيفتان.

يحط على أول غصن في أول لحظة تأتي فيها إلى العالم وتضرب بجناحيها.

كانت وردة ضعيفة تماماً مثل الفراشة التي تخرج من شرنقتها حديثاً.

حطّت على أول غصن وتزوجت خالد.

وفي أثناء طريقها إلى الحياة أصبحت ساقاها ضعيفتين، ثم فقدت جناحيها بفقدِها لزوجها.

كانت تلك الفراشة تكبر بسرعة بعد خروجها من شرنقتها، وهذا حال وردة تماماً.

حملت عبئ رعاية إخوتها في الوقت الذي لم تكن فيه سوى طفلة، أعالتهم وبَنَت لهم عشّاً.

تبدّلت كالفراشة البرّية من لون إلى لون لكي لا تكون طعماً للطيور.

كان دائماً للفراشات أعداء كُثر، تماماً مثلما كان لوردة..

وردة كانت فراشة قد بَهُتَ لونها وكُسِرَت جناحاها، تُحلِّق من غصن إلى غصن هرباً من الطيور الجارحة.

كانت فراشة المحيط الأطلسي التي ذبلت عيناها العسليتين من كثرة البكاء.

كانت فراشة بأربعة أجنحة.. لكن الآن.. حتى الفراشات تبكي..

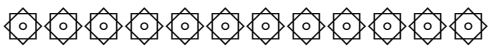

مارع..

كانت مارع واحدة من أولى المدن التي بدأت فيها المقاومة الشعبية ضد نظام الأسد في سوريا.

هي مدينة صغيرة امتلأت ببطولات آلاف المجاهدين.

مارع.. هي المدينة التي ولدت فيها وردة، وفيها كبرت وأمضت قسماً كبيراً من حياتها.

هي المكان الذي أعجبت فيه وردة وتقاسمت معه سرّها.

كانت منطقة تجمّع سكاني يتبع لمحافظة حلب، ويقع إلى جهة الشمال منها، تبعد عن حلب حوالي خمسة وعشرين كيلو متراً، يقطنها قرابة ستة عشر ألفاً من السكان.

إنّ شعب مارع حارب منذ البداية ضد العدو، ولم يعطوا العدو الفرصة بأن ينال منهم.

ومع بداية الأحداث قدّمت مدينة مارع آلاف الشهداء أثناء المعارك.

حيث كان الجميع على قلب رجل واحد، ويد واحدة أثناء حربهم تلك.

كذلك كانت مارع مسقط رأس القائد عبد القادر الصالح الذي اشتهر في بداية الثورة السورية بـ (حجي مارع).

تلك المدينة التي تم تأسيس لواء التوحيد فيها.

هاجم النظام مدينة مارع عدة مرات، أرضاً وجوّاً، لكنّهم لم يتمكّنوا من الاستيلاء عليها.

لم تُهاجَم من قِبَل قوّات النظام فقط، وإنّما من قِبَل قوّات الـ PYD أيضاً، أثناء معركة درع الفرات التي نشبت في شمال حلب، وكما قُصِفَت من قبل قوّات داعش في مدينة الباب عندما كانوا لا يزالون يسيطرون عليها.

كانوا دائماً يسعون لتضيق مجالات الحياة على الناس.

هذه المدينة الجميلة كانت مغلقة من جميع الاتجاهات تواجه أعداء مختلفين، إلّا أنّهم لم يستسلموا ولم يسلّموا المدينة للأعداء.

لم تكن المساعدات الإنسانية تصل إلى هذه المدينة إلّا القليل منها.

ولكونها مدينة عبد القادر الصالح كانت قوات النظام تقصفها باستمرار.

ولهذا السبب كان عدد الشبّان المجاهدين ينخفض باستمرار، إلى أن وصلوا إلى ثلاثمائة.

تابع عبد القادر الصالح القتال رغم كل الصعوبات والإمكانيات المحدودة.

هذا الرجل الشهم كان صديق الطفولة لنسيب وردة ياسر، ورفيق دربه،

وحمل مع ياسر راية المقاومة السورية على كتفيه.

وكان في ذات الوقت أحد أقرباء وردة.

كانت عينا وردة تلمعُ عندما تتحدّثُ عنه، ويمكن للمرء أن يفهم من خلال حديثا مدى فخرها به.

عبد القادر الصالح (حجي مارع).

أبو محمود، كان كلما اقترب إلى منزله ازدادت بهجته، وانفرجت أساريره.

سعادته تلك كانت من أجل ابنه وقرّة عينه الذي سيولد قريباً.

كان أبو محمود قد خرج لتوه من المسجد بعد أن أدّى صلاة العصر، واتجه نحو منزله.

وفي طريقه التقى ببعض أصدقائه فألقى عليهم السلام، وجلس معهم ليحتسي الشاي، وبعد أن أنهى شُربَهُ للشاي، مشى باتجاه منزله.

وبعد قليل جاءه طِفلٌ لا يعرِفهُ وقال: "أريد البشارة يا عمّاه، لقد رزقك الله بمولود ذكر"، ثمّ مدّ الولدُ يدَه باسِطاً كفّه يُريد بِشارَتَهُ.

التفت أبو محمود إلى الولد ونظر في عينيه، ثمّ قرصه من خدّيه بدلال وأخرج المال من جيبه وأعطاه إيّاه.

انصرف الولد مباشرةً بعد أن أخذ المال، أما أبو محمود فقد توجّه نحو المنزل وبخطوات سريعة.

كان فصل الربيع من العام 1979، قرّة عينه وآخر طفل له عبد القادر قد فتَح عينيه إلى الدنيا.

كانت زوجته ديبة مستلقيةً على فراش أصفر اللون والطفل من على يمينها مباشرةً.

كانت الولادة بالنسبة لديبة أمر عادي جدّاً.

بالنسبة لها كانت تنهض بعد عدّة ساعات من الولادة، لتعود لأعمالها اليومية.

كان من السهل جدّاً الحديث عن ولادة اثني عشر طفلاً.

لقد ولدت ديبة اثني عشر طفلاً تُوفي منهم اثنان، فبالنسبة لها الحياة تعني أولادها.

بناتها كانوا: مريم، فريدة، طيبة، فاطمة، نفيسة، زبيدة، أمينة وجميعهم قد تزوّجوا، ومعظمهم قد أصبح لديهم أولاد.

أما أولادها فكانوا: محمد، عبد الغني وقد توفي، أحمد وقد توفي أيضاً، عبد المحسن وقرّة عينها الأخير وهو عبد القادر.

مع مضي السنوات أصبح عبد القادر الصالح جزءاً من حياة والده وعضواً من جسده.

عبد القادر الصالح كان قرة عين أبيه الأخيرة وآخر ثمرات عائلته.

والده أبو محمود كان يحبّه جدّاً، يحمله في حضنه، ويأخذه معه أينما يذهب كلّما سنَحت له الفرصة.

عندما كَبُر وحان وقت ذهابه إلى المدرسة، ذهب إلى أسواق مراع بفرح شديد وأنفق الكثير من المال ليشتري له بنطالاً وزيّاً مدرسيّاً.

عبد القادر الصغير بدأ يذهب إلى المدرسة الابتدائية، وكان لون الزي المدرسي قد لاق إلى لون وجهه كثيراً.

كانت أمّه ديبة دائماً تدعو له بغيابه عندما كان يتّجه إلى المدرسة، راكضاً شوارع مدينة مارع، وذلك ليحمِيَهُ الله من العين والحسد.

كان طفلاً مختلفاً، كان كباقي رفاقه يلعب ويركض وتتّسِخُ ثيابه، إلا أنّه لم يشتكيه يوماً ما أحدٌ من زملائه لأبيه.

لا يتشاجر مع أحد أبداً ولا يُزعِجُ أحداً.

مضَت أعوام طويلة أنهى خلالها عبد القادر الصالح المدرسة الابتدائية والإعدادية، وفي المرحلة الثانوية أصبح شاباً مراهقاً.

وبسبب وضع والده -أبو محمود- المادي، لم يتمكن من إرساله لدراسة المرحلة الثانوية، وأخذَهُ للعمل معه في دكّانه الصغير والتي كان قد فتحها لبيع الحبوب.

كان عبد القادر الصالح يعمل مع والده، ويمضي ما تبقّى له من أوقات الفراغ في تعلّم العلوم الشرعية في جامع الحي الذي يقيم فيه.

وبفضل ذلك تمكّن من تعلّم القرآن الكريم وثقّف نفسه في علوم الدين على يد إمام الجامع، ليغدو شاباً مؤمناً قويّاً.

كان يرتاد المسجد دائماً حتى يشعر بالراحة النفسية ويزهد في الأمور الدنيوية، وأصبح مخزونه من العلوم الشرعية يزداد يوماً بعد يوم.

كان يؤدي صلواته جماعة في المسجد كل يوم دون ملل أو تقصير، وهو يُمعِنُ التفكير بآيات القرآن الكريم.

لم يكن عبد القادر الصالح شاباً محبّاً للكلام، بل كان كثير التفكير.

أطلق لحيتهُ في سنٍّ مبكّرة.

حيث توافق الشارب واللحية السوداء كثيراً مع لون وجهه.

كان يكسَبُ محبّة الناس، ويشدّ انتباههم بحيائه وأدبه وهيبته التي كان يتمتّع بها، بالإضافة إلى اعتنائه الواضح بملابسه.

كان أنفه الطويل وحاجبيه السوداوين، وأسنانه شديدة البياض، وعيونه الواسعة تضفي جمالاً يوسفياً على وجهه.

كان عبد القادر الصالح شاباً حسن النيّة محبّا لتقديم المساعدة، ويثِقُ فيه الجميع.

اكتسب عبد القادر الصالح شهرة بين أصدقائه بحيائه الذي تحلّى به، حتى أنّهم بدأوا يطلقون عليه لقب البنت من شدّة خجله وحياءه.

كان أثناء مشيه يحني رأسه ولا يلتفت، ولم يرتدي أبداً البناطيل الضيقة المصنوعة من الجينز ولا القمصان القصيرة الاكمام.

كان يرتدي دائماً عباءةً شديدة البياض.

كان شاباً شجاعاً قوي القلب.

كان بطلاً اقتفى درب الأبطال.

كان كثيراً ما يقرا سيرة عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، ويأخذهما مثالاً يُحتذى.

لهذا السبب كان كثير الاهتمام بفنون القتال والرماية وصناعة السيوف، حيث كان يقسم وقته بين العمل في دكّان والده والبقاء في الجامع وتعلّم فنون القتال وصناعة السيوف.

في تلك الأوقات كان الذهاب إلى الأعراس من أكثر الأماكن التي كان يفضّل الشباب أن يمضوا وقتهم فيها، حيث هناك يرتدون الملابس الفاخرة ويُظهرون مهاراتهم من أجل لفت انتباه أمّهات الفتيات.

أدّى عبد القادر الصالح صلاة المغرب في المسجد وخرج لتوّه.

كان أثناء ذهابه إلى المنزل يسبّحُ بمسبحة تحوي تسعةً وتسعين حبّة، وعلى رأسه يَضَعُ عرقيّة بيضاء، مرتدياً عباءةً بيضاء.

تقابل في طريقه مع صديقه ياسر، وهو شاب قصير القامة، ضعيف البنية، أسمر اللون، وقال له: "السلام عليكم معلم".

فقام عبد القادر الصالح بجمع مسبحته في يده ليضعها في جيب عباءته الواسع، ومدّ يده إلى ياسر ليردّ عليه السلام قائلاً: "وعليكم السلام".

بعد أن سأله عن أحواله، أخبره ياسر أنّ أصدقاءه سيذهبون إلى حفل زفاف صديقهم عمر، لذلك اتجه كل من عبد القادر الصالح وياسر إلى مكان حفل الزفاف شابكين أذرعهم بعضها ببعض، يعبرون شوارع مدينة مارع الضيقة ويتبادلون أطراف الحديث.

أثناء سيرهم كان عبد القادر الصالح ينظر إلى الأرض، وكتفه يلامس كتف ياسر وهو يقصُّ عليه طوال الطريق الأحاديث والآيات التي تعلّمها ويقدّمُ له النصائح.

بعد قليل جلَس كلٌّ من عبد القادر وياسر في مكانٍ ما وجدوه ضمن ذلك المكان المعد لحفل الزفاف، وبدأوا يتابعون بمرح الأشخاص الذي كانوا يرقصون.

بعد قليل اقترب من عبد القادر الصالح صديق له، أسمر اللون ذو لحية سوداء، وأمسك بيده ليأخذه إلى الساحة.

لم ينهض عبد القادر من مكانه في بداية الأمر وكأنه يقول لا يمكن ذلك، إلا أن صديقه أصر، فلم يجد صالح نفسه إلا وهو في الساحة.

بدأ يستعرض نفسه بلعبة السيف والترس، والجميع من حوله يتابعون بحماس.

بدأ الجميع يصفقون له بحماس فجأة عندما هَزَمَ الشخص الأول والثاني والثالث.

كان مثل سيدنا حمزة، يلوّحُ بسيفه على الملأ ويهزم كلّ من يقفُ أمامه،

حيث كان لتلك اللعبة قواعد، من يخسر يجلس على الأرض والفائز يقف منتظراً اللاعب الآخر ليخرج مقابلاً إيّاه، وإذا ما غلبَهُ أيضاً يخرج أمامه منافسان اثنان، فإذا هزم أولئك أيضاً فيسمى بطلاً ويُحمَل على الأكتاف.

حيث يبدأ المتنافسون بالتقدم اثنين اثنين أو ثلاثة.

كان صالح يفوز عليهم وسط تصفيق الجميع، ثمّ يترك الساحة وهو يُكنّى بالبطل.

كان يوم الثلاثاء من أيام الأسبوع، ومنزل أبو صالح قد امتلئ عن بكرة أبيه بالأصدقاء والأقارب وغيرهم، كانت هذه زيارات معتادة عندهم.

كانت أصوات حوار الضيوف عالية، تكاد تُسَمع من الشارع.

كان الحضور يتبادلون أطراف الحديث بمواضيع عدّة حول أحوال المدينة والتجارة وسنوات الشباب وغيرها.

بعد قليل استمرّ الحديث بموضوع زواج الشباب، ليستقيم أبو صالح في مجلسه قليلاً ومن ثم يثني قدمه اليسرى ويترك اليمنى مستقيمة، ثمّ يضعُ يده اليمنى على ركبته.

وبعد أن سبّح بشكل سريع بالمسبحة السوداء ذات الحبّات الكبيرة. التفت باتجاه قريبه الأسمر اللون والممتلئ الجسد بعض الشيء، والذي كان جالساً على يساره وقال: "ما دمتم تتحدثون عن زواج الشباب، فأنا وأمام هذا الجمع من الحضور أطلب يد ابنتكم لابننا عبد القادر على سنّة الله ورسوله".

عَلَت الأصوات فجأة لتوحي بالموافقة على ذلك الطلب.

تزوّج عبد القادر الصالح وأصبح لديه خمسة أولاد.

بدأت الأحداث في سوريا وخرج الشعب إلى الشارع، وعمّت الاحتجاجات جميع أنحاء البلاد، ووقف الناس احتجاجاً على الظلم الذي يتعرّضون له.

بالنسبة لعبد القادر الصالح كان حاله كحال معظم الناس، يعملُ في دكّانه ويسعى وراء لقمة عيشه.

زار تركيا مرّةً، ولخّص الأيام التي قضاها في تركيا قائلاً:

"كان اهتمامي بالسياسة قليلاً، ولذلك لم أُلقِ اهتماماً كثيراً لما كان يحصل في بداية الأمر، وحتى أنني لم أطلق رصاصة واحدة في حياتي، وعندما كنت أرى سلاحاً، كنت بالكاد أعرفهُ، كان اهتمامي في أوّل الامر في عملي فقط.

لكن وبعدما رأيت عدد الأموات يزداد، ورأيت الدبابات التي كانت تسير فوق رؤوس الناس، بجانب القذائف والقنابل التي تنهال عليهم، والأشخاص الأبرياء الذين كان يتم قنصهم، حينها فكّرت بأن عليَّ أن أفعل شيئاً حيال ذلك.

لن أنسى ذلك اليوم أبداً، كان يوم الجمعة، فَتَحتُ دكّاني وجلست في إحدى أركانه، في ذلك اليوم كان قد تقرر أن يقوم الناس بمظاهرة تنطلق من أمام الجامع المركزي.

أغلقت دُكّاني في الساعة العاشرة ولم أفتحه بعدها ولله الحمد.

حتّى أنني لم آخذ معي دفتر الديون، ولم ألمس أي شيء في داخل ذلك الدكّان، أغلقت الدكّان مباشرةً واتصلت بياسر، وطلبت منه أن نترافق سويّةً لأداء صلاة الجمعة، لذلك التقينا ومن ثمّ اتجهنا نحو المسجد.

كانت أطراف المسجد الأربعة ممتلئةً بالعساكر المسلّحين وقنّاصون موزّعون على أسطح الأبنية.

بعد انتهاء الصلاة، تجمّع الناس في ساحة بالقرب من الجامع وأخذوا ينتظرون قدوم الآخرين.

ثمّ بدء الجميع بالمسير وهم يهتفون بصوت واحد، مردّدين شعار نريد الحرّية.

بعد قليل بدء إطلاق الرصاص من قبل عساكر النظام واستشهد البعض برصاص القنّاصين واعتُقِلَ البعض الآخر.

وبعد أن انتهت تلك الأحداث انتقلت مع ياسر إلى دكّان أحد الأصدقاء، حيث كنّا قرابة خمسة أشخاص، وهناك ولله الحمد تم تشكيل نواة لواء التوحيد.

عبد القادر الصالح باع ماله وملكه وخرج من أجل نصرة دينه وطنه.

قرع باب جميع من يعرفهم ودعاهم من أجل عمل الخير.

لم يترك بلده للخونة.

وخرج في الطريق المباركة بشجاعة وتحوّل من رجل عادي إلى قائد كتيبة.

حمل كفنه على ظهره من أجل مستقبل بلده، ومن أجل الأجيال القادمة.

كان يريد العدالة والمساواة لبلده، ويريد أن يقف بوجه الظلم الذي دام أكثر من خمسين عاماً.

كان هدفه أن يحيا الشعب وهو مسلم، يطبّقُ تعاليم الدين بيسرٍ وأمان.

نالَ إعجاب الجميع بالرغم من كونه في بداية الطريق، واحتلّ مكانةً في قلوبهم.

أُطلِقَ عليه لقب الرجل الذي يدخل القلوب بلا أذن.

وأُطلِقَ عليه الرجل الموثوق من قبل النصارى والأكراد والعرب وبعض من الشيعة حتى.

اكتسبت الثورة السورية قوّة فوق قوتها بوجود ذلك الرجل، فقد ذاع صيته خلال فترة قصيرة في جميع أنحاء العالم.

كان الشباب يتجمّعون من حوله، يستمعون لكلامه الذي كان له الأثر الكبير في أنفسهم.

احتلّ مكانةً طيبةً في قلوب الجميع، وأصبح مثالاً للأمّة الإسلامية بتقواه وأخلاقه وعلمه وتضحيته وجهاده وشهادته.

أنشأ عبد القادر الصالح لواء التوحيد برفقة أصدقاء عزيزين عليه مثل: أبو عمر، ابو الطيب، ابو جعفر، وعبد العزيز سلامة.. وغيرهم.

وتولّى رئاسة هذا التجمع المحلي.

ذاع صيت لواء التوحيد الذي كان قد كَبُرَ بسرعة في فترة وجيزة، وأعلن الكثير من التجمعات المحلية انضمامها للواء التوحيد.

ازدادت قوّته عند تسميته بتشكيل لواء التوحيد الذي امتدّت قوّته حتى مدينة حلب، كان تشكيل الثورة الأول الذي تمكن من دخول المدينة.

قام بمحاصرة المدينة ومن ثم تمكّن من دخولها بخسائر قليلة.

واكبت الصحافة العالمية معركة حلب حتى آخر لحظة من دخول عبد القادر الصالح إلى المدينة، واحتلّ هذا الخبر المرتبة الأولى من بين الأخبار العالمية.

دخل تشكيل لواء التوحيد مدينة حلب، وسيطر على أحياء كبيرة فيها مثلا صلاح الدين والصاخور.. وغيرها.

كان عبد القادر الصالح يدير العمليات العسكرية، ويقف دائماً في الصفوف الأولى، يحارب ويأكل ويشرب مع عساكره في جبهات قتال غير اعتياديّة.

سكّان المناطق التي قام بتحريرها أحبّوه كثيراً ووثقوا به.

لم يقترب من مال أو ملك أحد، بل كان يقوم بحمايتهم.

جميع المناطق التي كانت تتعرض للنهب والسرقة، كانت تصبح آمنة بوجوده.

أصبح عبد القادر الصالح الآن قائداً يخرج إلى شاشات التلفاز ويُدلي بالتصريحات.

والقنوات الإخبارية كانت تسعى جهدها للوصول إليه وإجراء مقابلة معه.

كان عند خروجه على إحدى الشاشات التلفزيونية يتكلّم بفصاحة خاصة مستخدماً لهجته المحلّية، وينطق بالحقيقة بلا مجاملة.

كان يتحدّث بمحبّة دون أن يُظهِر أي اهتمام بمذهب أو دين أو لغة أو عرق..

يتحدّث مع كل مجموعات المعارضة الموجودة في سوريا ويعرض عليهم أن يتوحّدوا معه.

تعرّض للإصابة عدّة مرات على جبهات القتال، إلا انه لم يترك أرض المعركة أبداً.

حاربَ مع أصدقائه في ظروف صعبة جدّاً، دون أن يخطو خطوة واحدة للخلف.

وفي إحدى المقابلات التلفزيونية أدلى بالخطاب التالي: "النظام الآن في وضع مفلس بالنسبة للبَر، ولا يستطيع محاربتنا وجهاً لوجه، هم الآن يرمون القذائف، والقنابل من الجو باستخدام الطائرات الحربية، وإن دباباتهم وطائراتهم بالنسبة لنا لن تغيّر أي شيء ولن تخيفنا، حتى إنّ عساكر النظام منهارين تماماً من الناحية النفسية، وإن شاء الله سنضيّق عليهم هذا البلد باستخدام اسلحتنا البسيطة بإذن الله".

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

مئتا مليون دولار مقابل رأسه..

عبد القادر الصالح الذي كرّس حياته وماله من أجل الحريّة، زرع الخوف والرعب في قلب الأسد ورجاله.

هذا الرجل المقدام، كان دائما يهزم عساكر الأسد في كل معركة يدخلها، ويعلن في كل يوم تحرير منطقة جديدة.

طهّر شمال مدينة حلب تماماً من هذا النظام، واستولى على مؤسسات عدّة تابعة للنظام من أيدي عساكر النظام.

احتلّ مكاناً هامّاً في أكبر العمليات في مدينة حلب والتي عُرِفَت بعملية الفرقان وحقّق نجاحا كبيراً فيها.

يهتم بالموقف الحرج في مدينة حلب، ويتقدّم كلّ يوم فيها.

هو القائد الذي قام بتنظيف أحياء كبيرة في حلب من العدو مثل حي صلاح الدين والصاخور وحي سيف الدولة.

لذلك، ولكل تلك الأسباب، أعلن بشار الأسد عن جائزة لمن يستطيع قتل عبد القادر الصالح بقيمة مئتي مليون دولار.

لذلك قام الأكراد وبعض ممن أرادوا استغلال تلك الفرصة بتدبير عملية لاغتياله مرّات عدّة، ولكنه ينجو منها دائماً.

كان هدفاً لقنّاص في إحدى المرات التي خرج فيها للإدلاء بتصريح على إحدى القنوات التلفزيونية، ولكنه نجى بأعجوبة من أي الإصابات.

وتمت مشاركة هذه المظاهر في عدّة مواقع إخبارية وفي مواقع التواصل الاجتماعي.

عبد القادر الصالح وأثناء إعطائه تصريحات حول محاصرته لمدينة حلب، أصبح هدفاً للسلاح.

أثناء ذلك أراد الصحفي ترك اللقاء والفرار، لكن عبد القادر الصالح قال له: "لا تخف، إن كان قدرُكَ أن تموت هنا فلن تستطيع الهرب وستموت هنا، وإن لم يكن قدرك أن تموت هنا، لن يستطيع أحد أن يضرك بشيء".

الهجوم الثاني كان في مقر عسكري.

حيث خرج للوقوف أما الباب من أجل التحدّث على الهاتف، وبذلك أصبح هدفاً للقناص وبدأ زخّه بالرصاص.

أُصيب في كَتِفِهِ الأيسر، إلا أنّه نجى من تلك الإصابة أيضاً.

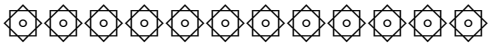

العمليات التي شارك فيها والمدن التي حرّرها..

كان يتنقّل من جبهةٍ إلى جبهة، ونجح تقريباً في جميع العمليات التي شارك فيها بأقل الخسائر.

شارك بالقتال وتحرير مناطق عدّة، برفقة مجموعات أخرى، فقد شارك في عمليات قتالية ضمن مدن: جرابلس والراعي وإعزاز.

المجموعات التي كانت تحت قيادة عبد القادر الصالح دخلت إلى مدينة جرابلس خلال مدة زمنية قصيرة، ليعلنها تحت حمايته.

لتنتقل سيطرته بعدها إلى مدينة الراعي وإعزاز.

استطاع ايضاً تحرير قرى عدّة في شمال حلب من أيدي النظام.

استولى على مؤسسات ومبانٍ عدّة في حلب، كانت تابعة للنظام، واستطاع الوصول إلى مطار النيربً الدولي.

تمكّن من تحرير أماكن عدّة ذات أهمية كبيرة بالنسبة للنظام، مثل: مشفى ومدرسة المشاة في حلب، فوج المشاة، مقر القيادة العسكرية في حلب، وأحياء عدّة مثل الشعّار وهنانو والصالحين.

شارك أيضاً في عمليّات كبيرة في مدن حمص وإدلب وحماه، وساهم في تحرير أماكن ذات أهمية استراتيجية هناك.

شارك في الحصار الكبير لمدينة حماة تحت شعار "قادمون يا حماة"، وحقق خلاله نجاحات كبيرة.

عبد القادر الصالح الذي كان يركض من تحرير إلى تحرير، دُوّنت كل النجاحات التي حقّقها في خِضم الثورة السورية بحروف من ذهب على صفحات التاريخ.

ازدادت قوّة ونجاحات مجموعات المعارضة وجيش سوريا الحر بفضل نجاح عبد القادر الصالح.

الكثير من القادة العسكريين السوريين والصحفيين والسياسيين استخدموا تعبير "الرجل الذي يشكّل العمود الفقري للثورة السورية" عندما كانوا يتحدّثون عنه.

كان عبد القادر الصالح يأتي إلى تركيا بين الحين والآخر، وفي كل مرّة كان يزور صديق روحه أبو عثمان في مدينة نيزب.

أبو عثمان كان رجلاً في الأربعين من عمره، ذو شعر كثيف وحاجبين غليظين، وطويل القامة.

كان رجلاً معروفاً ومحبوباً، والولد الأوسط لأب عالم.

كل الأعباء الثقيلة التي حملها على كتفيه كانت واضحة من خلال الخطوط التي ارتسمت على وجهه.

كان أحياناً يدخل في هدوء كبير، ليرفع رأسه بعدها وينظر من فوق نظّارته، لينطق بجمل مختلفة فيها تعابير من أجل صحوة الأمّة.

كان رجلاً وقوراً، يمتلك تعابير وجه متأمّلة، لكنّه كان محبوب المظهر عندما يبدأ بالتحدّث مرّة ثانية.

خيّم على وجهه الهدوء والسكينة بعدما قال: "صالح، كان إنساناً من عالم آخر، سلّم أمره لله تعالى، وكأنّه رياحٍ خاطفة أتت وغادرت المكان سريعاً".

بعدها أمسك الهاتف وقال للموظف الموجود على الطرف الثاني للهاتف "لا تدخل عَليَّ أحداً".

أسند ظهره إلى الخلف قليلاً، ثمّ قال:

"كان إنساناً مختلفاً، شجاعته وأمانته كانت على كل لسان، بطل الثورة السورية وقائدها، كان رجلاً غيوراً وحريصاً، كان يدخل إلى المدينة التي يضع تحريرها نُصبَ عينيه، ويرفَعُ علم سوريا الحرة فوقها، ساعد في انتشار نفوذ جيش سوريا الحرة بسرعة نتيجة انضباطه العالي ودهائه العسكري.

كان واحداً من الأشخاص الذين كان لكلمتهم أثر في المجتمع، وذلك بسبب انحداره من عائلة ذات نفوذ عالي، كان جدّه عثمانياً، تمّ تعينه مديراً للمالية من قِبَل السلطان عبد الحميد خان وأكمل حياته هناك.

كان عاشقاً لتركيا، وكان لديه العديد من الأصدقاء الجامعيين والسياسيين والصحافيين.

عبد القادر الصالح هو القائد الذي ألقى القبض على قائد الشبيحة في حلب المدعو زينو برّي، وهو أحد كلاب الأسد الذي قال "حلب ربّي" (حاشى لله)، حيث قام عبد القادر الصالح بقتله.

كان قائداً بطلاً مقداماً وشجاعاً، حتّى أن الظلّام وضعوا جائزة سبعة عشر ترليون من أجل جنازة هذا القائد المقدام الذي قدّم روحه وماله من أجل الله عز وجل دون أن يرمُشَ له جفن.

نعم، ما ذكرته لم يكن خطأً، فشبيحة الأسد وضعوا جائزة من أجل جسد هذا القائد، حتى وإن كان ميّتاً.

كان إنساناً ورجلاً سياسيا ومجاهدا، يتّبعُ الطرق السلمية في زمن تسوده الانحيازات والتفرقة.

ملاحظة: إنّ جميع المناطق والمدن والقرى التي قام عبد القادر الصالح بتحريرها، قام النظام أو مجموعات أخرى بالاستيلاء عليها مرّةً أخرى عَقِبَ وفاته.

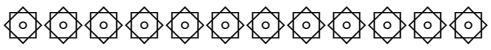

شهادته

قائد شجاع، متواضع، ودود، بشوش الوجه، زرع الخوف في قلوب الأعداء، وساهم بتقدّم الثورة السورية.

كان يترأس الثورة السورية على الرغم من وجود الآلاف من الجامعيين والأطباء والمهندسين والأساتذة.

خاف النظام منه كثيراً منذ بداية طريقه في النضال، ووضع جائزة لرأسه.

القاتل الأسد لم يترك ملاحقة هذا الرجل الشجاع، وأعطى أوامره لجنوده بأن يجعلوا الإطاحة برأس ذلك الرجل شُغلهم الشاغل.

أخذ النظام بتعقّب ذلك الرجل المقدام عبر رجال استخباراته وجنوده وعساكره الخاصة.

لم يَخَف من الموت وكان يقف دائماً في الصفوف الأولى في ساحات المعارك ضد النظام.

كان قائداً شجاعاً وحكيماً، يعتمد خططاً عسكرية من أجل الخلاص من جنود الكفر.

كان يغيّر مكان الاجتماعات التي يحدّدها في آخر لحظة، لكي لا تصبح هدفاً سهلاً للأعداء.

حيث كان مكان الاجتماع يُقصَفُ بعدما يغادره ذلك البطل.

في اليوم السابع عشر من شهر أيلول من عام 2013، بلّغ ذلك القائد الشجاع زمان ومكان الاجتماع، وكعادته غيّر مكان الاجتماع في اللحظة الأخيرة.

كان هناك مقرّات عسكرية أمنية وقريبة من مطار حلب.

غيّر صالح قراره في آخر لحظة، لينقل ذلك الاجتماع إلى تلك المقرات. وخرج من أجل أن يلتقي بالقادة المدعوّين ومنهم أبو الطيب وعبد العزيز سلامة وآخرون.

عندما وصل إلى مكان الاجتماع، دخل إلى القاعة في الطابق السفلي للبناء، وبدأ يتناقش مع أصدقائه حول مستقبل سوريا وشعبها وحرّيتها.

لكن استخبارات النظام تمكّنت هذه المرّة من تحديد المكان الجديد للاجتماع، ثم قاموا باستهداف ذلك المكان ليسقُطَ ذلك القائد شهيداً.

فبينما هم مجتمعون، وإذ بطائرات النظام تحلّق فوق ذلك المكان، وبدأوا بقصف البناء بالقنابل بشدّة، واستمر القصف حتى تأكدوا من وفاته.

أصبح البناء مستوياً مع الأرض، وأُصيب القائد المقدام عبد القادر الصالح بجروح بالغة.

أما ابو الطيب وصديقه فقد استشهدوا أيضاً.

غطّت الغيوم السوداء مدينة حلب، ولفّتها رائحة البارود.

كانت الأرض والسماء تبكي في ذلك اليوم، حلب وسوريا وتركيا والعراق وفلسطين جميعهم كانوا يبكون..

تم نقل عبد القادر الصالح إلى غازي عنتاب من أجل معالجته، واستشهد بعد مضي يوم واحد فقط على دخوله تركيا.

دُفِنَ في مدينة مارع، تلك المدينة التي وُلِد فيها، بعد ما تمّ نقل جُثمانه ليلاً.

بعد وفاته أصبحت حلب وحماة وادلب وحمص ومارع أيتام، سوريا كلّها أصبحت يتيمة.

عمّ السواد مدينة حلب، وبكى الجميع على هذا القائد المغوار..